# الاثر الاقتصادي في الحياة السياسية خلال العصر الاموي (٤٠ ـ ١٣٢هـ)

د. ناجي حسن
كلية الاداب - جامعة بغداد

ورث الامويون املاكا واسعة لدولة الخلفاء الراشدين، بما عليها من مؤسسات اقتصادية، ونظم مالية، وسبل ادارة الثروة الزراعية وطرق تنظيم جبايتها ، واساليب استغلالها .

والروايات على اختلافها لا يستشف منها رأي قاطع ، او قول فاصل ،لما حصل عليه المسلمون من الاموال خلال تقدم القوات الاسلامية في مناطق الفتح، ولا غطت ما حصل عليه بيت المال منها، واقتصرت اخبارها على غنائم المقاتلين وما حصلوا عليه في ساحات المعارك(١٣).

ورواية سيف تظهر حجم الغنائم التي حصل عليها الجند الاسلامي مما كان في القصر الابيض ومنازل كسرى وسائر دور المدائن ، فاقت كل تصور (فقسم سعد الفيء بين الناس بعد ما خمسه ، فاصاب الفارس اثنا عشر الفا وكلهم كان فارسا ليس فيهم راجل) (١٤) وقيل ان عددهم كان ستين الفا(١٥).

وحين قدم على عمر بن الخطاب بأخماس فارس نظر الى شيء لم تره عيناه مثله من الجواهر واللؤلؤ والذهب والفضة(١٦).

ويدخل ما حصل عليه المقاتلون من اسلاب المعارك في عداد الخيال احيانا ، فرواية سيف تدعي ان سعد بن ابي وقاص وجد ( في المدائن قبابا تركية مملوءة بسلاسل مختمة بالرصاص فظنوا انها طعام، فاذا هي آنية من الذهب والفضة فقسمت

بين الناس[١٠]) . وباع هلال بن علفة اسلاب رستم بتسعين الف دينار ، واستطاع زهرة بن جويه التميمي الحصول على ثمانين الف دينار حين باع منطقة جالينوس القائد الفارسي[١١]. واصاب المسلمون يوم جلولاء ثلاثين الف الف مثقال ، واثنتي عشرة الف جارية وغلام[١٢] ، ويبالغ ابو عبيده في مقدار الاموال التي حصل عليها المقاتلون بعد وقعة اليرموك حيث اصاب الفارس اربعة وعشرون الف مثقال من الذهب الاحمر والراجل ثمانية الاف[١٣].

نخلص من هذا كله ان تطورا اقتصاديا هائلا طرأ على حياة الجماعات التي وقعت عمليات الفتح على عاتقها، وكان انشاء الديوان سنة ٢٠ هـ اول تنظيم سياسي اقتصادي لربط القبائل ومن تبعها بالسلطة الحاكمة في المدينة ، وتنظيم عملية الفتح وتوزيع العطاء على اساس ثابت وسبيل واضح[١٤].

ورواية الماوردي تلقى الضوء على هذا التنظيم العادل الذي اوجده الديوان حين فرض الخليفة الثاني لاهل اليمن وقيس بالشام والعراق لكل رجل منهم من الفين الى خمسمائة الى ثلثمائة ولم ينقص احدا منهم[١٥]. كما فرض للمنفوس مائة درهم، فاذا ترعرع بلغ مائتي درهم ، فاذا بلغ زاده[١٦].

وحصل من شارك في القادسية على الفين درهم اضافة الى خمسمائة لاولئك الذين ابلوا بلاءا حسنا في الاحداث[١٧]، وهو ما يسمى بـ شرف العطاء[١٨]. ولم يقف الامر على العرب المقاتلة حسب ، وانما تعداه الى بعض كبار الفرس الذين دخلوا الاسلام حين فرض لمائة منهم في الفين ، ولستة اخرين في الفين وخمسمائة [١٩].

من هذا يتضح ان حالة العرب الاقتصادية اخذت تتطور تطورا سريعا في مناطق الفتح باعتمادها على العطاء، اضافة الى الغنائم الهائلة التي تم الاستيلاء عليها في تلك المناطق[٢٠].

لم تقف اطماع القبائل التي قام الفتح على سيوفها عند حد، وانما حاولت

---

٠٧

الاستحواذ على ارض السواد، حين طالبوا بتوزيعها على المقاتلة، وحسنا فعلت المدينة برفضها تلك المطالب، واكتفت بمنح مالية عوضا عن توزيع الاراض واقتسامها [٢١].

وكان عمر بن الخطاب يجبي العراق كل سنة مائة الف الف درهم في رواية ابي يوسف [٢٢] ، ومائة وعشرين الف الف برواية الماوردي [٢٣] .

وبلغ خراج الصوافي سبعة ملايين درهم [٢٤]. وادت الموصل وما جاورها خراجا قدره اليعقوبي[٢٥] وابن خرداذبة [٢٦]بـ خمسة واربعين مليون درهم .

وفي رواية قدامه ان خراج الموصل بلغ ستة ملايين وثلثمائة الف درهم [٢٧].

والروايات على ندرتها لم تغفل الجزية ومكانتها في بيت المال ، وان مرت عليها بعجالة ، فليس لدينا سوى رواية واحدة يوردها البلاذري [٢٨]، ان (٥٥٠) الفا كانوا يؤدونها في العراق زمن عمر بن الخطاب ، ترى كم يدفعون وعلى اية طبقة يحاسبون .

وفي مناطق المشرق الاسلامي، وخراسان على وجه الخصوص، فان المعاهدات والاتفاقات التي عقدها الفاتحون ضمنت للمسلمين ضريبة واحدة على الرؤوس لم تكن من الوضوح، اذ لا سجل احصاها، ولا رواية بين ايدينا بينت مقدارها[٢٩]، وقد هلل لها كبار الملاك والمتنفذين من الايرانيين الذين حفظت حقوقهم، وكانوا الطرف الرابح بين الفاتحين وابناء جلدتهم من اهل المناطق المفتوحة .

وفي الديار المصرية شاب الروايات اضطراب لا سبيل لانكاره وغموض في فرض الضرائب واستحصالها ، ويستشف مما ينقله المقريزي والسيوطي ان جباية الخراج كانت بالتعديل (اذا عمرت القرية وكثر اهلها زيدت عليهم، وان قل اهلها

وخربت نقصوا)[٣٠]. ويؤخذ مما يقوله ابن عبد الحكم ان جباية خراج مصر كان اثني عشر الف الف درهم في ولاية عمرو بن العاص [٣١]، وجباها عبد الله بن سعد بن ابي سرح (٢٥-٣٥هـ) اربعة عشر الف الف [٣٢]. وسدت الجزية مكانا واسعا من ابواب بيت المال رغم قلة المعلومات وندرتها .

من هذا يظهر حجم الثروة الكبيرة التي حصلت عليها دولة الخلفاء الراشدين، ناهيك عن الاخماس التي وردت من مختلف الميادين ومواقع الاحداث التي سيطرت عليها القوات الاسلامية .

هذه المقاطعات الواسعة وما عليها من مال ورجال ، وما انضاف اليها من مناطق جديدة ادخلها الفتح آلت للدولة الجديدة ، واصبحت دمشق مركز الخلافة وفيها مقاليد السلطة ، وبأيدي اهلها تدار عجلة الدولة ، ويتم تدبير الامور .

احكم الامويون الهيمنة على المقاطعات التي دانت لسلطانهم، وخضعت لحكامهم ، وشد دولتهم وثبت اركانها ولاة لم يعرفوا الولاء لغير الامويين ، بعد ان ابعد معاوية اهله واقرباءه عن تولي الولايات خشية من عدم المحاسبة للذين استطالت ايديهم [٣٣]، وامتدت لنهب المال العام ، واضرت ببيت المال ، فاختار من لا قوة تحميه غير سلطان الخلافة وسطوتها ، حتى رد من امتدح زياد وسياسته لمصلحة معاوية ودولة الامويين قائلا: (اسكت ما أدرك صاحبك شيئا بسيفه الا ادركت اكثر منه بلساني ) [٣٤].

اولى معاوية منذ ايامه الاولى اهتمام خاصا بجني الاموال والمحافظة عليها معتمدا على وفرة الجند وكثرة المال لضمان مسار الحكم وقوته، وغدا العطاء وما يتبعه من هدايا وهبات من وسائل السيطرة وضمان الولاء والتأييد لسلطانه ، بعد فيض من الاموال ازداد تدفقه على دمشق لم يعرف له سابق او مثيل .

فكانت جباية الكوفة وسوادها خمسين مليون درهم [٣٥]، على حين بلغ خراج

البطائح خمسة ملايين درهم [٣٦]، وبلغت هدايا النوروز والمهرجان عشرة ملايين درهم من البصرة وحدها [٣٧].(واستصفى من مال كسرى وقيصر خمسين الف الف درهم ) [٣٨]، في رواية المقدسي . وادت الجزية دورها في تدعيم بيت المال في دمشق ، وقد اجمل اليعقوبي عائدات الدولة الاموية في عهد معاوية بقوله ( واستقر خراج العراق وما يضاف اليه مما كان في مملكة الفرس في ايام معاوية على ستمائه الف الف وخمسة وخمسين الف الف درهم ، وكان خراج السواد مائة الف الف وعشرين الف درهم وما يضاف اليها اربعين الف الف ، وخراج اليمامة والبحرين خمسة عشر الف الف درهم ، وخراج كور دجلة عشرة الاف الف درهم ، وخراج نهاوند وماه الكوفة وهو الدينور وماه البصرة وهو همذان ، وما يضاف الى ذلك من ارض الجبل اربعين الف الف درهم ، وخراج الموصل وما يضاف اليها ويتصل بها خمسة واربعين الف الف درهم . وخراج اذربيجان ثلاثين الف الف درهم ؛ بعد ان اخرج معاوية من كل بلد ما كانت ملوك فارس تستصفيه لانفسها من الضياع العامرة، وجعله صافية لنفسه فاقطعه جماعة من اهل بيته ) [٣٩].

اولى معاوية موضوع المال عناية فائقة ، ووضعها نصب عينيه ولم يتساهل في هذا الامر او شبيهه ، لما له من نتائج بالغة الكلفة على الاوضاع القائمة ، وكان معاوية مستمعا اريبا لكل شاردة، متنبها واعيا لكل واردة يستشف منها رائحة المال . فقد كتب الى عبد الله بن دراج عامله على خراج العراق ان احمل الي من مالها ما استعين به (فاستصفى لمعاوية ما كان لكسرى وآل كسرى من صوافي يجتبون مالها لانفسهم ولا تجري مجرى الخراج ، فبلغت جبايته خمسين الف الف درهم من ارض الكوفة وسوادها)[٤٠].

وكتب الى عبد الرحمن بن ابي بكرة بمثل ذلك في ارض البصرة وامرهم ان يحملوا اليه هدايا النوروز والمهرجان ( فكان يحمل اليه في النيروز وغيره ، وفي

المهرجان عشرة الاف الف ) [٤١].

وكان معاوية مدركا للتحذير الذي اطلقه المغيرة ابن شعبة بعدم منح ولاية الكوفة لعبد الله بن عمرو بن العاص بعد ان هم بذلك، فيكون بين فكي الاسد ، عمرو بن العاص بمصر، وابنه في العراق ، ما يجعل الاموال نهبا بينهما ، فعدل عما هم به ودفعها الى المغيرة بن شعبة [٤٢].

ولم يدع معاوية اموره المالية بين يدي المغيرة بن شعبة عند ولايته الكوفة سنة ٤١ هـ عملا بنصيحة عمرو بن العاص واكتفى بشؤونها الادارية والعسكرية خشية التلاعب بمقدراتها المالية [٤٣]. ولم يف معاوية لعمرو بن العاص بما وعده حين طمع الاخير بولاية مصر له ولعقبة من بعده ، فصاغ معاوية العقد بذكاء وجعل الولاية لابن العاص حياته[٤٤].ولم يترك عمرو ابن العاص عند موته سوى ثمانية الف دينار وخمسة وعشرين الف دينار من الغلة ما يبلغ ارتفاعها في السنة مائتي الف دينار ، ومن الورق الفي الف درهم [٤٥].

وفي البصرة لم تعد من ضرورة تقضي بقاء عبد الله بن عامر واليا عليها بسبب تأمين عريكته ، وضعف سياسته تجاه اهلها ، وعدم المقدرة على ضبطها . الى جانب تهيبه لخراجها؛ ما اغضب معاوية واثاره ، فطلب من قريبه التنازل عن الولاية وعن امواله واملاكه في مكة للضغط عليه بترك الولاية فوافق ( على ان تترك له امواله واملاكه ، وان لا يمس اعمال ولا تتعقب آثاره ) [٤٦].

وحين اوغل الحكم بن عمرو الغفاري في مناطق خراسان كتب معاوية الى زياد (ان اكتب الى الحكم بن عمرو ان يحتفظ بالصفراء والبيضاء فيحمل الى بيت المال بالشام) [٤٧].

من هذا يخلص الى مدى تمتع بيت المال في دمشق بقدرة مالية كبيرة بفضل

فيض هائل من الاموال تدفقت لكسب ود الحاكم ونيل رضاه . واستطاع معاوية من خلاله تقوية دولته ودعم بنيانها، وهو ابن سادة مكة وتجارها، واعرف الناس بالمال وفعله، وهكذا استطاع ضمان قبائل بلاد الشام بما اغدقه عليهم من خير دائم ، وهبات وعطايا لا تعوض، اذ اشترط حسان بن مالك، وكان زعيم القحطانيين، وسيدهم بالشام ان يفرض لالفي رجل الفين الفين ، وان مات قام ابنه او ابن عمه مكانه ، ثمن الولاء للامويين [٤٨].

اما الحجاز، مركز الصحابة ومنطلق الاتجاهات المعادية للامويين ، فقد اغدق معاوية المال عليهم بسخاء لامتصاص كل ما من شأنه تعكير العلاقة بين المدينة ودمشق ، وقطع السنة المعارضة ، واسكات الخصوم . ولم ينس حلفاءه من احابيش الحجاز الذين منحوه صفو علاقتهم وثقتهم [٤٩].

لم يستطع بيت المال رغم ضخامة وارداته ان يفي بتلك الامتيازات والالتزامات الباهضة ، مما دفعه لايجاد موارد اخرى لسد العجز الذي بات وشيكا ، واخذت علاماته تتضح وتكبر .

فكتب الى عامله على مصر ان زد على كل رجل من القبط قيراطا ، حتى استنكر عامله ذلك قائلا : (وكيف ازيد عليهم وفي عهدهم الا يزاد عليهم) [٥٠]، مما حملهم على العصيان والثورة على الامويين الذين استخدموا السيف لانهائها .

وفي المدينة حاول عاملها عاصم بن ابي هاشم بن عتبة ان يصلح طريقة العطاء بغية توفير بعض الموارد لبيت المال بقوله : (يأتيني اهلها فادفع الى كل رجل غطاءه في يده)[٥١]، وكان العرفاء ياخذونها فلا يغيبون غائبا ، ولا يميتون ميتا ، ويصدقون اهلها يعطوهم بعضها وياخذون بعضها ( فكره الناس ذلك لما يصيبونه من حظ الموتى والغيب، فامتنعوا من اتيانه) [٥٢].

تحمل العراق عبئا ثقيلا جراء موقفه المعارض للوضع الجديد بعد انتقال

العاصمة من الكوفة الى دمشق ، وحال دون استمرار تمتعه بالامتيازات المالية التي حصل عليها العراقيون ايام الامام علي بن ابي طالب، ولا يلتفت الى قول الاصفهاني : ( ان معاوية امر لأهل الكوفه بزيادة عشرة دنانير في اعطيتهم وعامله على الكوفه النعمان بن بشير ، وكان عثمانيا ، وكان يبغض اهل الكوفه لرأيهم في علي فابى ان ينفذها لهم فلم يجزها ولا نفذها)[٥٣]. ومرجع الشك فيما يذكره الاصبهاني مبعثة طبيعة العلاقات المتوترة بين الكوفة ودمشق لا تستطيع دفعها حفنة من مال لا قيمة لها تدفع على هيئة هبة او عطاء من جانب، ومن جانب اخر يصعب التصديق ان يأمر خليفة مقتدر ولا ينفذ امره عامل متكل . ويدفع كل ذلك ان معاوية اخذ الزكاة من اعطيات اهل الكوفة ، وهو عمل لم يعرف في الاسلام من قبل)[٥٤].

احكم معاوية بن ابي سفيان سلطة الامويين ، وثبت نفوذهم في بلاد الشام ، وحبب نفسه الى قلوب زعمائها ، بفضل عقليه قبلية عرفت تسييس الاوضاع وتهدأتها بالحزم والمداهنة والمصانعة تارة ، والمال تارة اخرى ، اعانه على بلوغ غرضه بيت مال كبير زخت فيه الاموال من كل مكان ، اغدق منه بسخاء على انصاره واعوانه ومؤيديه [٥٥]، ومن توجس منه الممانعة ، وعدم التأييد[٥٦].

نهج يزيد بن معاوية ( ٦٠-٦٤ هـ) الطريق الذي سلكه والده من قبل باعتماده بيت المال وسيلة للترضية في بلاد الشام خاصة ، وكسب التأييد والقضاء على المناوئين والمعارضين والخصوم ، فما ان بويع في دمشق حتى ( فتح بيوت الاموال فاخرج لاهل الشام اموالا جزيلة ففرقها عليهم ) [٥٧].

وفي الحجاز ، مركز الصحابة وابنائهم ، الذين كان الامويين من ابعد الناس للارتياح منهم ، اعلن عبد الله بن الزبير عدم ولائه للسلطة في دمشق والاعتراف بالحاكم الجديد ، بل نصب نفسه زعيما للمسلمين في مكة [٥٨].

وفي المدينة ظهرت معارضة قوية ليزيد ، فحاول عثمان بن محمد بن ابي

سفيان عامله عليها انذاك (٦٢-٦٤ هـ) ، ان يداري الامور فارسل عبد الله بن حنظلة الغسيل ، والمنذر بن الزبير ورجالا من اشرافها الى يزيد ، فلما قدموا عليه اكرمهم ، واحسن اليهم، فاعطى عبد الله بن حنظلة مائة الف درهم ، واعطى لكل من اولاده الثمانية عشرة الاف درهم [٥٩]، وحصل المنذر على مائة الف درهم [٦٠]،وحين عودتهم اعلنوا الثورة عليه وهم يقولون : ما قبلنا عطاءه الا لنتقوى به [٦١].

ورواية ابي مخنف عن احداث المدينة غاية في البعد ، وعدم ادراك الواقع الاجتماعي والاقتصادي لما حدث ، فهو يذكر انها صرخة المتدينيين واحتجاجهم على السلوك الشخصي لحكام دمشق (من شرب الخمر والعزف بالطنابير)[٦٢]، وما علم ان الامر ابعد من هذا الذي ذهب اليه ، فقد كانت المدينة عاصمة الخلافة الاسلامية ، ومحور ادارتها ، وقطب رحى لاحداث فيها ، وبانتقالها الى الكوفة تارة، ودمشق تارة اخرى فقد اهل المدينة نفوذهم الاجتماعي ، ومكاسبهم الاقتصادية وانتهى عهد تكدس الاموال ، ورنين الحلى، ونفائس الجواهر، وباتت تتلقف فتات موائد الامويين ، وما يجاد على اهلها من هبات وعطايا خصت لمن قدم يد الولاء، واظهر المدح والثناء ، وغدت تابعا لا يعتد به بعد ان كانت متبوعا في كل امر .

استطاعت دمشق ان تقضي على روح التمرد في المدينة بعشرين الف مقاتل من جند اهل الشام ، وتوصية هامة لقائد الحملة: (فاذا ظهرت عليهم فابحها ثلاثا ، فما فيها من مال او ورقة (دراهم) او سلاح او طعام فهو للجند) [٦٣] . ولم تذكر المصادر على اختلاف رواتها عصيانا بعد هذا طيلة العصر الاموي .

ما من شك ان العراق تحمل عبئا ثقيلا جراء موقفه المعارض ، وزادت مشاكله بعد ربطه بالشام ، وحال دون تمتعه بتلك الامتيازات التي حصل عليها حين كانت الكوفه عاصمة الدولة الاسلامية ، وبذلك اصبحت الكوفة محور فعاليات الدولة الاموية السياسية، وغدت مسرحا للصراع الضاري بين الامويين واهل العراق ، وكان سوء التوزيع المالي وكثرة التجاوزات احد اهم الاسباب لذلك التذمر .

فما ان اندلعت الحرب الاهلية في بلاد الشام سنة ٦٤ هـ حتى انفرط عقد الولايات الخاضعة لدمشق ، واهتبل الكوفيون الفرصة للتخلص من قيد الالتزام المالي الذي فرض عليهم وقيدهم . فقد كانت الاوضاع في الكوفة لآل الزبير ، فوصلها عبد الله بن مطيع عاملا لعبد الله ابن الزبير . معلنا : ( ان امير المؤمنين عبد الله ابن الزبير بعثني على مصركم وثغوركم و امرني بجباية فيئكم ، والا احمل فضل فيئكم الا برضاكم )[٦٤] . مهددا: ( فاتقوا الله و استقيموا ولا تخالفوا ، وخذوا على ايدي سفهائكم ، والا تفعلوا فلوموا انفسكم ولا تلوموني ، فوالله لاوقعن بالسقيم العاصي ، ولأقيمن الأصعر المرتاب )[٦٥]. فكان رد الكوفيين اعنف : ( اما امر ابن الزبير اياك الا تحمل فضل فيئنا عنا ، والا يقسم الا فيئنا . والا يسار فينا الا بسيرة علي بن ابي طالب التي سار بها في بلادنا هذه حتى مضى رحمه الله عليه )[٦٦].

حالت سياسة الامام علي الخاصة دون استئثار فئة خاصة على حساب الجمهور الاعظم من الامة ، فهو وان سوى بين الناس في العطاء ، الا انه لم يحاول الاحتفاظ ببيت دائم للمال اعتقادا منه ان في ذلك خيراً للمسلمين ، وان لا مسوغ لخزنة واكتنازه ، ولم يكتف الامام بعطاء واحد وانما تعددت عطاياه . ففي رواية ابي حكيم : ( ان عليا اعطى العطاء في سنة ثلاث مرات ، ثم اتاه مال من اصفهان فقال : اغدوا الى عطاء رابع اني لست لكم بخازن )[٦٧] . والى هذا يرجع تعلق العراقيين بتلك السياسة ، ورفض الاتجاه الجديد الذي جاء به الزبيريون ، ووضع حد لسيطرتهم على الكوفة ، وتهيأة الاجواء لحكومة المختار ابن ابي عبيد ( ٦٦-٨٦ هـ) الذي اعلن استقلال العراق والحفاظ على ثروته بعيدا عن الشام واهله ، مستهلا عهده بتوزيع الاموال وتفرقتها بشكل لم تشهد الكوفة له مثيلاً[٦٨].

وتظهر رواية ابي مخنف طبيعة العقلية البدوية وقواعد تعاملها مع السلطة الحاكمة على ضوء منافعها وما تتوقعه من مكاسب مالية ، حين كتب المختار بن ابي عبيد لزعماء القبائل في البصرة يدعوهم للانظمام الى حكومته، والتسليم بطاعته،

ومنهم مالك بن مسمع زعيم بكر بن وائل ، وزياد بن عمرو العكي ، زعيم الازد ( اما بعد ، فاسمعا واطيعا اوتكما من الدنيا ماشئتما، واضمن لكما الجنة)، فقال مالك لزياد: (يا ابا المغيرة، قد اكثر لنا ابو اسحاق – يعني المختار – اعطانا الدنيا والآخرة ) ، فقال زياد لمالك مازحا : ( يا ابا غسان ، اما انا فلا اقاتل نسيئة من اعطانا الدراهم قاتلنا معه)[٦٩]. فليست الحال ممازحة او انها مفاكهه كما ظنت الرواية، بين الرجلين، ولكنها حقيقة الاتجاه البدوي ، وطبيعة فكرة ، التي استوعبها القادة السياسيون ، وعرفوا كيف يسيرونها تبعا لمصالحهم .

وفي التفاتة غاية في البراعة اظهرها المختار لشد حكمه وتقوية سلطانه باتجهه صوب الموالي الذين اغفلهم بيت المال من هباته وعطاياه ، فاعتمد عليهم ، واشركهم في حكومته ، وفتح الباب واسعا امامهم ، وعمل على مساواتهم اجتماعيا وماليا حين اتخذ منهم قادة في جيشه ، وكانوا من قبل قد منعوا من القيادة وركوب الخيل ، واجزل لهم العطاء [٧٠]، فقلب له زعماء الكوفه ظهر المجن بعد ان ابعدهم عن حكومته ، قلص نفوذهم، وقلل اعطياتهم ، فولوا وجوههم شطر مدينة البصرة حيث يتولاها مصعب بن الزبير لأخيه قائلين : ( انه عمد الى عبيدنا وموالينا فقربهم وادناهم ، وحملهم على الخيل، واعطاهم الاموال واطعمهم الفي ، وقد علمتم ما كان لنا فيهم من المنافع لايتامنا وارامانا)[٧١].

استطاع مصعب بن الزبير القضاء على حكومة المختار بن ابي عبيد ، وضمان ولاء بعض العراقيين بما اغدقه عليهم من اعطيات ، فلم يكتف بعطاء واحد بل دفع لهم عطاءين ، ففي رواية الشعبي: (انه كان يعطي الجند عطاءين ، عطاء في الشتاء وعطاء في الصيف)[٧٢]. غير انه اصطدم بسياسة اخيه عبد الله المالية التي اتصفت بالبخل والتقتير خلافا لما عرف عن مصعب بانه مبذر متلاف للمال [٧٣]، مما حملهم على غسل ايديهم منه ووضعها بيد عبد الملك ، وهو ما فعله اهل الحجاز للغرض نفسه .

وفي محاولة لرتق الفتق الذي اتسع بين اهل العراق وحكومة آل الزبير ، قدم مصعب على اخيه بمكه ومعه وجوه اهل العراق قائلا : ( يا أمير المؤمنين ! جئتك بوجوه اهل العراق ، لم ادع لهم بها نظيرا لتعطيهم من هذا المال ؛ قال : جئتني بعبيد اهل العراق ، لا اعطيهم مال الله ، والله لا فعلت ) [٧٤]. مما عجل برسائل اهل العراق وكتبهم، وهم يقدمون لدمشق خدماتهم لقاء ما يملأ جيوبهم وايديهم من اصفر رنان ثمن انحرافهم عن ابن الزبير، وتخاذلهم عن نصرته .

تمادى زعماء القوم ورؤساؤهم في خدمة الحاكم القادم ، وكل يطلب ولاية اصبهان ثمنا مجزيا لخيانة مصعب والتحريض عليه ، حتى ابدى عبد الملك استغرابا ودهشة لما يسمع قائلا : ( وما اصبهان هذه ، اتنبت الذهب والفضة ، لقد كتب الي فيها اربعون كتابا) [٧٥]، فكتب لكل منهم يمنيه ولايتها حتى وصلت رسائله للاحنف بن قيس زعيم تميم، والشخصية المميزة بين رجالات العراق وقادته ، يعرض عليه ولاية في بلاد الشام ، فكان جوابه : ( يا عجبا لابن الزرقاء يدعوني الى نفسه واهل الشام ، والله لوددت ما بيننا وبينهم بحرا لا يعبر الينا احد منهم الا اخترق ، اللهم أمت الاحنف قبل ان يرى لأهل العراق غدرا ) [٧٦].

ولم يسلم من رسائل عبد الملك ومغريات امواله في رواية البلاذري ابراهيم بن الاشتر، صديق مصعب ابن الزبير ، وقائد جنده ، حين كتب اليه ( فلك الفرات وما سقى فانحز الي فيمن اطاعك من قومك ) [٧٧].

وعندما ادرك قيس بن الهيثم نوايا اهل العراق وانحيازهم لعبد الملك حذرهم بقوله: (ويحكم لا تدخلوا اهل الشام عليكم ، فوالله لئن تطعموا بعيشكم ليصفين عليكم منازلكم، والله لقد رايت سيد اهل الشام على باب الخليفة يفرح ان ارسله في حاجة ، ولقد رأيتنا في الصوائف واحدنا على الف بعير ، وان الرجل من وجوههم ليغزوا على فرسه وزاده خلفه)[٧٨].

وتحذير الاحنف بن قيس لزعيم الازد زياد العتكي الذي وصلته بعض هبات اهل الشام وعطاياهم بقوله: ( اظنك يا زياد ستدخلون علينا اهل الشام يقتلوننا وينزلون دورنا ، فمهلا يا زياد ) [٧٩].

حتى ان عمر بن حريث خليفةمصعب على الكوفة واخص الناس به ، وافضل مؤتمن لحفظ امانته ، كان مائلا الى عبد الملك بفضل فيض المال الذي ضاقت به الجيوب، وامتلات به الايدي ، اعد استقبالا حافلا لسيده الجديد وجنده في الكوفة ، بعد مقتل مصعب صفت فيه الموائد احتفاءا بالقادمين [٨٠].

لم يكن وضع القبائل العراقية خافيا على عبد الملك، ولا هو بعيد عن دخائلها، فهي وان مدت يد الطاعة واعطت ولاءها برغبة زعمائها الذين اتخموا [٨١]، ومع هذا لم تستطع الاموال التي بذلت ان تستل الاحن والضغائن من قلوبها. فرواية الطبري تذكر ان داود بن قحذم زعيم بكر بن وائل اقبل بمائتين من اتباعه لتقديم فرض الطاعة، والموالاة للمتربع على عرش السلطة في دمشق، فلما خرجوا اتبعهم عبد الملك بصره وقال: (هؤلاء الفساق لولا ان صاحبهم جاءني ما اعطاني احد طاعته)[٨٢].

كان الاعتقاد ان يصاحب العهد الجديد تطور اقتصادي كبير في المقاطعات الخاضعة لعاصمة الخلافة ، لكن الامور اصبحت خلاف ما يتوقعون بعد ان امست تلك المناطق بقرة بيت المال الحلوب .

وفي الكوفة حل الحجاج بن يوسف الثقفي (٧٥-٩٥هـ) بأمر يبعث على الدهش ، ويثير الاستغراب حين كتب له عبد الملك : ( يا حجاج قد اعطيتك الكوفة صدقة ، فطأها وطأة يتضائل منها اهل البصرة ، واياك وهوينا الحجاز فان القائل هناك يقول الفا ولا يفعل حرفا ) [٨٣].كتاب يظهر قلق الشام من مشاكل العراقيين واثرها على الوضع الاقتصادي ، وانتظام جباية الاموال ، وهكذا كانت تنتظر الحجاج

مهام ثقيلة ، فكانت تلك الولاية على ما يقوله فلها وزن : ( يغلي باطنها كالمرجل ، ولم يكن ذلك لمجرد الصراع الذي استمر سنين طويلة ) (٨٤).

لم يبسط الحجاج يده للناس في العطاء ، ولا ساسهم بروح الترضية والتسامح ، ولا اعطى الناس اقدارهم بل جعل يديه وقد غلت الى عنقه ، وبالغ في التقتير والتضييق فقد (كان يفرض في ثلثمائة ، ويشترط ان يكون من فرض له صاحب فرس وسلاح شاك)(٨٥). وبعض المقاتلة لم يتجاوز عطاؤه المائتين (٨٦).

ويورد الثعالبي نصا فريدا للحالة المعاشية للعامة زمن الحجاج ، فهو يذكر ان (الحجاج كان يجري لكاتبه يزيد بن اسلم كل شهر ثلثمائة درهم ، وكان يعطي منها لامرأته خمسين درهما ، وينفق في ثمن اللحم خمسة واربعين درهما ، وينفق باقيها في ثمن الدقيق وباقي نفقاته ) (٨٧) على حين يجبي عامله عبيد الله بن المخارق على الفلوجتين ثمانية عشر الف الف درهم (٨٨).

والى هذا يعزى تهرب الجند من الانضمام الى الجيش المقاتل في البعوث والتي دأب الحجاج على ارسالهم لجبهات القتال في مناطق الفتوح وتجميرهم في تلك المناطق(٨٩).

والروايات بتعدد مصادرها ادعت ان الحجاج لم يدع لمن سبقه حسنة الا ازالها ، و ذكرا يخص المال تمتع القوم بفضله الا رفعه ، فهو لم يبق للزبيريين بعض افضالهم في العراق . فقطع الزيادة التي منحها مصعب لاهل العراق في اعطياتهم قائلا : ( ان الزيادة التي زادكم اياها ابن الزبير انما هي زيادة ملحد منافق فاسق ولسنا نجيزها ) (٩٠).

وحين احتج عليه القوم قائلين : ( انها ليست بزيادة ابن الزبير ، انما هي زيادة امير المؤمنين عبد الملك اذ نفذها واجازها ، وجبرت لنا على يد بشر بن

مروان ) [٩١]. وحسم الحجاج امرها حين اسمعهم شر ما يسمع ، فاندلعت اول مواجهة لقبائل البصرة على الحجاج غايتها كف الاذى عنهم، ووضع حد لسلطانه ، قادها عبد الله بن الجارود سنة ٧٥هـ ، ولم يزل في السنة الاولى من ولايته [٩٢].

لم يدرك الحجاج سعة الدولة وامتداد اراضيها واحتوائها عناصر مختلفة المشارب، متعددة الاهواء ، وان مؤسسات الدولة ، وازدياد نفقات الخلافة وعوز بيت المال ، كان بحاجة لعقلية متزنة تستطيع امتصاص النقمة وازالة الخلاف دون اللجوء الى الشدة والعنف ، لكن الرجل سلك طريقا وعرا مستغلا حاجة البلاط وزيادة نفقاته ، فكان كتابه الى عبد الملك يستأذنه في اخذ الفضل من اموال اهل العراق ، فكان رده قاسيا على الحجاج: (لا تكن على درهمك المأخوذ احرص منك على درهمك المتروك ، فابق لهم لحوما يعقدون بها شحوما)[٩٣]. مما اضطره لفرض الخراج على السكان العرب الذين اقتنوا اراضي خراجية ، وفرض الجزية والخراج على الاعاجم الذين اسلموا وبقوا في قراهم ، فلما هاجروا الى المدن فرارا من تلك الالتزامات ، وعدم قدرتهم على الايفاء بها[٩٤]. فاخرجهم من حواضر الامصار واعادهم الى قراهم وبلدانهم[٩٥] قائلا : ( انتم علوج وعجم وقراكم اولى بكم ، ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجهه اليها [٩٦].

كل هذا مهد لثورة عارمة قادها عبد الرحمن ابن الاشعث سنة ٨٢ هـ ، افضل قادة الامويين ، وقائد افضل جيش عرفته الدولة الاموية في فتوح مناطق المشرق ؛ حتى دعي بـ(جيش الطواويس ) لكمال عدته وكثرة اعداده [٩٧].

استطاع ابن الاشعث في رواية ابي مخنف ان يحشد مائة الف مقاتل بوجه الحجاج[٩٨]، دليل اتساع الثورة وقوتها ، وضمت صفوفها الجند العراقي الذي لم تجر عليهم اعطياتهم كما تجري على جند اهل الشام [٩٩]. وهذا سر انخراطهم بالثورة

وحماسهم للمشاركة فيها . مما اضطر الحجاج بعد فوات الاوان ( ان يفرق في الناس مائة وخمسين الف الف درهم ) [١٠٠]، للترضية وكسب ود القوم وتأييدهم .

لم تجد شروط التهدئة التي حملها عبد الله بن عبد الملك من والده استجابة وقبولا لدى العراقيين ، وتضمنت عزل الحجاج وتولي محمد بن مروان مكانه ، ومساواة العراقيين باهل الشام في العطاء [١٠١].

مما اجبر دمشق على حشد طاقاتها لحسم المشكلة عن طريق السلاح . ويعطي فلها وزن صورة اخاذة لا تقل روعة عما ينقله ابو مخنف ، وهو من اشد المعجبين برواياته عما حدث بقوله : ( ان ثورة ابن الاشعث محاولة جديدة قوية ومستميته من جانب اهل العراق لطرح نير اهل الشام عن كاهلهم ، ولما جاء الحجاج زاد ضجرهم من هذا النير ، فكان الحجاج وجنده يمثلون السيادة الاجنبية مجسمة ، وكان على جند العراق ان يقنعوا باعطيات قليلة ويتحملوا في الوقت نفسه مؤونة جند الشام ) [١٠٢].

لم يكن عهد الحجاج الذي امتد لاكثر من عشرين عاما عهد هدوء ورفاه اقتصادي نعم به العراقيون ، لكنه اصبح موطن مشاكل دائمة ، وتوارث وفتن عارمة لا نهاية لها رغم امكاناته المالية ، وتنوع موارده الاقتصادية ، مما عطل كل تقدم في حياة اهله وعيشهم . ورواية ابن خرداذبه تبين تردي الوضع الاقتصادي في العراق وتدهور احواله المالية بقوله : ( جبى عمر بن الخطاب السواد مائة الف الف وثمانية وعشرين الف الف درهم ، وجباه عمر بن عبد العزيز مائة الف الف واربعة وعشرين الف الف درهم ، وجباه الحجاج بن يوسف ثمانية عشر الف الف درهم ليس فيها مائة الف الف وذلك لعسفه وخرقه وظلمه ، واسلفهم الفي الف درهم فحصل على ستة عشر الف الف درهم ، ومنع اهل السواد من ذبح البقر لتكثر الحراثة والزراعة ، فقال الشاعر في ذلك :

شكونا اليه خراب السواد فحرم جهلا لحوم البقر ) [١٠٣].

استغل الحاكمون ومن يلوذ بهم في دمشق موارد العراق وثرواته المالية ، وكثرت اقطاعاتهم بفعل هبات منحت وعطايا استوهبت ، فهذا مسلمة ابن عبد الملك وقد استحوذ على اراضي واسعة استغلها لجيبه الخاص وصالح اهله ، فكل من البلاذري وقدامة يرويان : ( ان البثوق انبثقت ايام الحجاج فكتب الى الوليد انه قدر لسدها ثلاثة الاف الف درهم ، فاستكثرها الوليد ، فقال مسلمة : انا انفق عليها على ان تعطيني خراج خراج الارض المنخفضة التي يبقى فيها الماء ، فحصلت له ارضون وطساسيج كثيرة [١٠٤].

وهو امر بعيد عن روح الشرع واصول استغلال الملكية العامة في دولة الاسلام ، والى هذا نبه ابو يوسف واشار اليه بقوله : ( فاما البثوق والمسنيات التي تكون في دجلة والفرات وغيرهما من الانهار العظام ، فان النفقة على هذا كله من بيت المال ، لا يحمل على اهل الخراج من ذلك شيء ، لان مصلحة هذا على الامام خاصة ، لانه امر عام لجميع المسلمين ، فالنفقة عليه من بيت المال لان عطب الارضين من هذا وشبهه ، انما يدخل الضرر من ذلك على الخراج ) [١٠٥].

بوصول عمر بن عبد العزيز الى السلطة (٩٩-١٠١ هـ) حدث انقلاب خطير في الماكنة الادارية لدولة بني اميه ، وغدت الامور تسير خلاف مجرياتها السابقة ، ونهج لم يعرفه الامويون من قبل ، ولا سلكه احد من حكامهم . وفي اول رسالة الى عامله على الكوفة تتضح المأساة التي ناء تحت ضغوطها العراقيون ، وما اصابهم من حيف وظلم نتيجة لسياسة لم تعرف الرحمة بالقوم ، ولا خطر ببال منفذيها انها اميز مقاطعات الامويين واكثرها مالا ورجالا ( من عبد الله عمر امير المؤمنين الى عبد الحميد بن عبد الرحمن . سلام عليك ؛ اما بعد ؛ فان اهل الكوفة قد اصابهم بلاء وشدة ، وجور في احكام الله ، وسنة خبيثة استنها عليهم عمال السوء ... ولا تأخذن هدية النيروز والمهرجان ، ولا خراج على من اسلم من اهل الارض ) [١٠٦].

ولسنا بسبيل الاصلاح المالي الذي احدثه عمر بن عبد العزيز ، والاثر الذي تركه في المناطق الخاضعة للدولة الاموية، والنتائج الباهرة التي تمخضت عنه، وكان

رحمة للناس وللامويين انفسهم ، فقد هدأت ظاهر العنف والمقاومة ، وخف النزاع الضاري بين الامويين والخارجين عليهم وفي مقدمتهم الخوارج [١٠٧]، وتدفق المال على دمشق،وعوض عمر الناس عما فاتهم من حرمان، وفي رواية شهاب المجاشعي ( الحق عمر بن عبد العزيز ذراري الرجال الذين في العطايا ، اقرع بينهم ، فمن اصابته القرعة جعله في المائة ، ومن لم تصبه القرعة جعله في الاربعين ، وقسم في فقراء البصرة كل انسان ثلاثة دراهم ، فاعطى الزمنى خمسين خمسين ، قال : واراد رزق الفطيم ) [١٠٨].

غير ان قصر فترة الاصلاح ، وتأصل جذور الفساد من قبل الولاة اوقف مشروع الاصلاح وانتهى بوفاته [١٠٩].

وما ان ولي يزيد بن عبد الملك ( ١٠١-١٠٥هـ) السلطة في دمشق حتى اعيدت الاوضاع الى سابق عهدها ، واستجدت الضرائب القديمة التي عمل سلفه على بطلانها ، ويعطي ابن الاثير وصفا دقيقا لما حدث بقوله : ( وعمد يزيد الى كل ما صنعه عمر ابن عبد العزيز ما لم يوافق هواه ، فرده ولن يخف شناعة عاجلة ولا اثما آجلا ) [١١٠].

وصدرت اوامره بفرض ضرائب جديدة على العراقيين ( فأضر باهل الخراج ، واعاد السخرة والهدايا والنوروز والمهرجان ) [١١١]. لكنها لم تف بمتطلبات قصور الخلافة وبذخها[١١٢]، فالحقها بكتاب جديد الى عمر بن هبيرة عامله في العراق ( انه ليس لامير المؤمنين بارض العرب خرصة [١١٣]فسر على القطائع فخذ فضولها لامير المؤمنين ، فجعل عمر ياتي القطعة فيسأل عنها ثم يمسحها ، ثم ان الناس ضجوا من ذلك فأمسك ) [١١٤].

عاد التدهور المالي من جديد يخيم على الوضع في العراق ، مما اذكى نار

الثورة التي قادها يزيد بن المهلب سنة ١٠٢هـ في تحد كبير لمنازلة الامويين وسلطة الخلافة بعد ان كان آل المهلب من اشد انصار الامويين ومؤيديهم، وكانوا سيفا مسلطا على الخوارج .

وفي خطبة القاها في واسط بعد ان استولى عليها ، شخص ابن المهلب الداء الذي اصاب العراقيين وهيأ له الدواء بقوله ( يا اهل العراق ، يا أهل السيق والسباق ومكارم الاخلاق، ان اهل الشام في افواههم لقمة دسمة قد زببت لها الاشداق، واقاموا لها على ساق، وهم غير تاركيها لكم بالمراء والجدل، فالبسوا لهم جلود النمور)[١١٥].

اندفع اهل العراق للثورة ، تحدوهم رغبة الخلاص من اوضاع لا طاقة لاحتمالها ، حتى يقال ان عددهم بلغ انذاك مائة وعشرون الف مقاتل في رواية ابي مخنف [١١٦]. واستولى ابن المهلب على البصرة ، وبعث عماله الى الاهواز وفارس وكرمان، وانضم اليه اهل الكوفة والجبال خلق كبير[١١٧]. حتى اضطر يزيد بن عبد الملك ان يرسل وفدا الى الكوفة لتهدأة الامور ، وهو يمني القوم بالزيادات في العطاء[١١٨]. وكان لانخداع العراقيين بوعود الامويين ، وتحسين اوضاعهم من جملة الاسباب التي سهلت هزيمتهم[١١٩]. وتسلم القائد مسلمة بن عبد الملك [١٢٠]، ولاية العراق . غير ان الخلاف سرعان ما نشب بينه وبين يزيد بن عبد الملك حول مغانم الحرب واستحواذ مسلمة على خراج السواد لنفسه [١٢١] ، فعزل عنها ليتولاها عمر بن هبيرة ( ١٠٢-١٠٥هـ) .

لم يدع ابن هبيرة منفذا لجمع المال والحصول عليه الا دخله ، فتتبع انصار آل المهلب ومؤيديهم واتهمهم باخذ اموال الفيء ( وكانوا من وجوه اهل خراسان واهل الولايات والكلف العظام في المغازي ، فعذبهم حتى استخرج منهم ما اتهمهم به من اموال رغم انكارهم [١٢٢]. واتجه الى الخراج فجبى ليزيد مائة الف الف درهم

سوى اطعام الجند وارزاق المقاتلة [١٢٣].

ويلخص المسعودي ما وصلت اليه الحال زمن يزيد بن عبد الملك بقوله ( ان مسلمة بن عبد الملك دخل عليه فعذله لما عم الناس من الظلم والجور ، باحتجابه واقباله على الشرب واللهو ، وقال له : انما مات عمر امس وقد كان من عدله ما قد علمت فينبغي ان تظهر للناس العدل وترفض هذا اللهو ، فقد اقتدى بك عمالك في سائر سيرتك)[١٢٤].

شهد عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ) انفراجا كبيرا في حياة العراقيين الاقتصادية ، وشمل القوم رفاه مالي بفضل السياسة الرائدة التي انتهجها خالد بن عبد الله القسري (١٠٦-١٢٠هـ) عامله في العراق ، وهو رجل تمتع بعقلية ادارية راجحة جديرة بالثناء ، وكان الوضع الاقتصادي شغله الشاغل بعد ركود اقتصادي ممل خلال عهد الحجاج الطويل، الذي شغلته الحروب والفتن والثورات[١٢٥].

اصلح خالد الاراضي، وسد البتوق، وحفر الانهار فكثر الانتاج الزراعي، وزادت الثروة العامة ، وكان خالد نفسه في جملة من حصل على ثروة كبيرة حتى بلغ ما حصل عليه في العام ثلاثة عشر مليون درهم ، وزادت غلة ابنه على عشرة ملايين درهم[١٢٦].

وتظهر الارقام ضخامة الاموال التي استغلت والارباح التي جناها المستغلون من خلال [١٢٧]مطالبة هشام بن عبد الملك خالدا بعشرة ملايين درهم على ما يقوله الدينوري[١٢٨]، بينما يذكر اليعقوبي [١٢٩]انه طالبه بـ ستة ملايين درهم ) ، وكان هشام بن عبد الملك ممن احتكر مساحات واسعة من الاراضي الزراعية لنفسه [١٣٠]، واخذ يتحكم باسعار الغلال فيها، مما ادى الى ارتفاع تكاليف المعيشة ، ادركنا سبب التذمر جراء ذلك الغلاء . ولما كان خالد ابن عبد الله القسري هو الاداة المنفذة

لعملية الاستغلال ، هذه فقد اتجهت نقمة الناس اليه، ولما كان الخليفة هو المحتكر والمستغل في واقع الامر ، فقد اضطر خالد الى مصارحتهم بالحقيقة ليبرئ ساحة نفسه ، فلما شكوا اليه الغلاء قال لهم : ( زعمتم اني اغلي اسعاركم فعلى من يغليها لعنة الله ) [١٣١]، مشيرا بكناية ظاهرة الى الخليفة هشام بن عبد الملك.

لكن خالدا بما جبل عليه من سجايا الكرم والحرص على كسب الثناء دونما اعتبار لمال او طمعا في سلطانه [١٣٢]، ادرك الثقل الكبير الذي ينوء تحته قطاع واسع من الناس، فعمد الى ما عنده من غلال فباعها بثمن معتدل وربح منصف، مما عرض غلات الخلافة الى خسائر كبيرة ، فكتب اليه هشام مغاضبا : ( لا تبيعن من الغلات شيئا حتى تباع غلات امير المؤمنين ) [١٣٣].

اتسع الخرق بين الرجلين ، وانتهى ما بينهما من ود ، وحل الخصام محل الوئام ، تم بنهايته تنحية خالد ليتولى يوسف بن عمر ( ١٢٠-١٢٥هـ) مكانه ، الذي تفنن في الجباية واستحصال الاموال ، وطرق جمعها ، فما ان سمع بالاموال التي حصل عليها نصر ابن سيار [١٣٤]، حتى قدم على الوليد بن يزيد ( فاشترى نصر بن سيار وعماله من الوليد) [١٣٥]، لغرض اقتسام الغنيمة بينه وبين سيده .

وكانت خاتمة مطاف المشاكل بكل ابعادها في العراق باندلاع ثورة زيد بن علي سنة ١٢٢ هـ نتيجة لمعاناة مرهقة ابتدأت بأفول نجم الكوفة ، وانتقال السلطة الى دمشق. وبفشلها انتهت اخر محاولة مسلحة لأهل العراق للتخلص من السيطرة السورية .

اغفلت الموارد على اختلاف رواتها الوضع الاقتصادي في العراق بعد عهد هشام بن عبد الملك، وما تلى ذلك من اضطراب وفوضى عمت الدولة الاموية، وكل الذي حصلنا عليه نتفا هنا وهناك من زيادة في الخراج فرضها عمر بن هبيرة (١٠٢-١٠٥هـ) : (ارهق الفلاحين ، واضر بأهل الخراج واعادة السخرة والهدايا ،

وما كان يؤخذ من النوروز والمهرجان ) [١٣٦]. مما ادى الى ترك الكثير من مزارعهم فرارا من الضريبة ، مما اجبر يزيد بن الوليد للتخفيف من حدة ما حدث في اول خطبة له بقوله: (ولا احمل على اهل جزيتكم ما يجليهم عن بلادهم، ويقطع نسلهم)[١٣٧].

والراجح ان الاوضاع المالية بقيت على حالها ، وزاد الحالة سوءا ان يزيد بن الوليد انقص الجند بعض اعطياتهم [١٣٨]، وهو دليل ارتباك وضعف السلطة السياسية، وفقدان الهيمنة الادارية ، وانهيار المؤسسات المالية . ويلخص المسعودي ما آلت اليه الامور اواخر الدولة الاموية في بلاد الشام بالقول : ( انها كانت عجيبة الشأن من كثرة الهرج والاختلاط واختلاف الكلمة وسقوط الهيبة [١٣٩].

وفي مصر وشمال افريقية تكاد الصورة لا تختلف عن ذلك الذي وجدناه في العراق ، اذ اصبحت هذه الولاية خزانة جاهزة للدفع حسب حاجة ومشيئة عامل الخلافة ، وذلك قول عمرو بن العاص ( انما انتم خزانة لنا ، ان كثر علينا كثرنا عليكم ، وان خفف عنا خففنا عنكم )[١٤٠]. وهذا يمثل عدلا كبيرا تجاه المقاطعات التي خضعت لسلطة المدينة، الا ان عمال السوء حملوا اهلها فوق ما يتحملون ، حتى قال عروة بن الزبير (اقمت بمصر سبع سنين، وتزوجت بها، فرأيت اهلها مجاهيد قد حمل عليهم فوق طاقتهم ) [١٤١]، حتى شاعت احاديث الرفق بهم ، والتخفيف عنهم [١٤٢].

استغلت الديار المصرية منذ الايام الاولى للفتح لتلبية حاجة وعوز مناطق الحجاز بالقمح ، وهي المعروفة بكثرة اراضيها وخصوبتها ، فلا عجب ان جعلها الرومان ومن بعدهم البيزنطيون من جملة املاكهم فخفوا لاحتلالها [١٤٣].

وما ان استولى عليها المسلمون حتى توالت كتب الخليفة عمر الخطاب الى عمرو بن العاص فاتح مصر ، وفي السنة نفسها يحثه فيها على ارسال الخراج ، وما تنتجه الارض دون تباطئ او تأخير .

يروى ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد ان عمر بن الخطاب كتب الى عمرو بن العاص في استبطاء الخراج ( فاني فكرت في امرك والذي انت عليه ، فاذا ارضك واسعة عريضة رفيعة ، قد اعطى الله اهلها عدد وجلد وقوة في بر وبحر ، وانها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكما مع شدة عتوهم وكفرهم، فعجبت من ذلك، واعجب مما عجبت انها لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جذب)[١٤٤].

والمتدبر لرسالة الخليفة الثاني يجدها تلمح الى ناحيتين هامتين : اولاهما ان عامل مصر اوصل ما ترتب عليه من خراج الى حاضرة الخلافة ، بيد ان ذلك لم يكن كافيا بالقدر الذي كانت عليه عمارة الاقليم ورخاؤه. والثانية ان هنالك احتجانا واضحا للمال بفعل تلاعب عامل مصر ومن معه في هذا الاقليم .

لم يكن عمر بن الخطاب راغبا في ان يحرج عامله او اتهامه بغش او تدليس، ولهذا اتبع ذلك بكتاب آخر (وقد علمت انه لم يمنعك من ذلك الا عمالك، اعمال السوء اتخذوك كهفا ، وعندي بأذن الله دواء فيه شفاء عما اسألك عنه) [١٤٥]. وكان عمر بن الخطاب سأل من له علم بجبايتها فاخبره ان المقوقس قد جباها قبل الفتح بسنة وبلغت عشرين مليون ، على حين ادعى عمرو بن العاص انها بلغت اثني عشر مليون دينار [١٤٦].

توالت رسائل عمر بن الخطاب وكتبه الى ابن العاص بلا انقطاع ( فقد عجبت من كثرة كتبي اليك في ابطائك بالخراج ، وقد علمت اني لست ارضى منك الا بالحق المبين، ولم اقدمك الى مصر اجعلها لك طعمة ولا لقومك ) [١٤٧]. وما ذاك الا بفعل العوز الشديد وحاجة مناطق الحجاز لمادة مصر ومعونتها .

وتظهر ولاية عبد الله بن سعد بن ابي سرح (٢٥-٣٥هـ) حقيقة الاوضاع الاقتصادية في مصر حين جباها لعثمان بن عفان اربعة ملايين دينار ، بينما جباها عمرو بن العاص قبله مليونين ، ولهذا قال له عثمان بعد عزله : ( ان اللقاح بمصر بعدك قد درت لبانها ، فقال له ذاك لانكم اعجفتم اولادها ) [١٤٨]. ولا نعلم على سبيل التحقيق من المحق فيما يقول ، وعندي ان حجة ابن العاص هي الاقوى لما له من خبرة ومعرفة بهذا الاقليم ، فهو ادرى بشعابه دراية اهل مكة بشعابها ، فقد حملها ابن ابي سرح فوق ما تستطيع ، فجنى ما يريد دون اعتراض اهلها او تمنعهم .

وفي عهد الامويين غدت مصر وشمال افريقية مناطق للاستغلال الخاص، ناهيك عن سد ما يعترض بيت المال من عوز وافلاس ، وكانت طعمة لعمرو ابن العاص يستثمرها الاخير الى اخر ايام حياته ثمن تأييده ومساندته لحاكم الشام اثناء نزاعه مع علي بن ابي طالب ، وهو اتفاق قطع كل وصل بين الفسطاط ودمشق ، وحرمها من التمتع بخيرات مصر واموالها. فكان عمرو بن العاص (لا يحمل الى معاوية من مالها شيئا، يفرق الاعطية في الناس، فما فضل من شيء اخذه لنفسه)[١٤٩]. لكن عقد الاتفاق بين الرجلين لم يغلق باب المداهنة التي عرف بها معاوية ، واخبار حاكم مصر وما يجنيه من اموالها تصل الى مسامع معاوية وهو يتحرق شوقا اليها ، لذا سلك طريقا اسمح وايسير لدغدغة عواطف ابن العاص وتليين موقفه ، وتخفيف حدته فكتب اليه ( اما بعد ، فان سؤال اهل الحجاز وزوار اهل العراق قد اكثروا علي ، وليس عندي فضل من اعطيات الجنود ، فاعني بخراج مصر هذه السنة)[١٥٠].

وكانت مناسبة ينشدها ابن العاص فاهتبلها للرد على معاوية بعنف ، افرغ كل ما في قلبه من الم وشكوى لم يبدها له من قبل ، جراء عدم الوفاء له بوعده . فكتب له عمرو.

معاوية ان تدركك نفس شحيحة فما ورثتني مصر امي ولا أبي

وما نلتها عفوا ولكن شرطتها وقد دارت الحرب العوان على قطب

ولولا دفاعي الاشعري وصحبه　　لا لفيتها ترغو كراغية السقب

فلم يعاوده بعد ذلك في شيء من امرها .

بموت عمرو بن العاص عام ٤٣هـ اعيدت ثروة الاقليم الى دمشق ، واضحى ما يفيض عن عطاء الجند وارزاقهم يرسل الى معاوية رغم المعارضة الشديدة للمقاتلة العرب لهذا الاجراء، اذ كانت الرغبة بعدم ارسالها الى الشام ، والاحتفاظ بها لانفسهم ، وضم ديوانهم اربعين الفا من المقاتلة ، كان اربعة الاف منهم في مائتين من العطاء [١٥١]، مما يدعو الى الاعتقاد ان المقاتلة كانوا في ضيق مالي كبير ، مما اضطر معاوية لفرض ضرائب جديدة على السكان لملافاة العجز الذي سببه بذخ الخلافة وهباتها من جانب ، وسد باب النقمة القادمة من اهل الديوان من جانب اخر ، اذ ان اخوف ما تخافه دمشق هم العرب المقاتلة ، وليس اهل البلاد المصريين الذين لا قدر لهم على المجابهة والمقاومة . ويستشف من رواية الكندي ان معاوية اضطر لزيادة العطاء للمقاتلة لكنه لم يعين مقدارها، واستمرت حتى قطعها يزيد ابن عبد الملك [١٥٢].

لم يكتف عبد الملك بن مروان (٨٦-٨٦هـ) ومن بعده الوليد (٨٦-٩٦هـ) بفرض الجزية على الرهبان ، ولكنها فرضت على المسلمين من المصريين ، فعل الحجاج باهل العراق [١٥٣].

وذهب سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ) ابعد من اخيه في الجباية وتحصيل الاموال ، فقد جعل واليا خاصا للخراج ، وفصل ولايته عن الولاية العامة ، فاقر عبد الملك بن رفاعة الفهمي ( ٩٦-٩٩هـ) لولاية الديار المصرية ، ودفع ولاية الخراج الى اسامة بن زيد التنوخي [١٥٤].

بالغ اسامة بن زيد صاحب الخراج لسليمان في سياياته القاسية تجاه المصريين ، والروايات على اختلافها مجمعة على استهتار الرجل وشدته على اهل

الذمة ، وتعسفه في جباية الخراج [١٥٥]، حتى انه ( وسم ايدي الرهبان بحلقة من حديد ، جعل فيها اسم الراهب، واسم ديره وتاريخه ، فكل من وجد بغير وسم قطع يده) [١٥٦]. ورواية الجهشياري تذهب الى انه استأذن على سليمان فلما وصل اليه قال له : ( اني ما جئتك حتى نهكت الرعية وجهدت ، فان رايت ان ترفق بها ، وترفه عنها، وتخفف من خراجها ما تقوى به على عمارة بلادها، وصلاح معاشها ، فافعل ، فانه يستدرك ذلك في العام المقبل ، فقال له سليمان : هبلتك امك ، احلب الدر ، فاذا انقطع فاخلب الدم والنجا ) [١٥٧].

شهد عهد عمر بن عبد العزيز ( ٩٩-١٠١هـ) انقلابا سياسيا وماليا خطيرا ، وكان توليه الخلافة في دمشق رحمة للناس وللامويين انفسهم . فقد صدرت اوامره بعزل عمال الخراج الذين عملوا لسليمان، ويعطي الجهشياري صورة غاية في الابداع وهي تلقي ضوءا ساطعا للحال الذي كان عليه عمر بن عبد العزيز من الم ممض ، وامتعاض شديد ، وهو يسمع ويرى عبث الولاة وعسفهم في الرعية ، والمبالغة في استحصال الضرائب ، بقوله : (فلما توفي سليمان كتب عمر ، وهو على قبره ، بعزل اسامة بن زيد، وبعزل يزيد بن ابي مسلم، فاغتابه الناس وقالوا : هذا الحرص ، الا صبر حتى يدفن الرجل ! فقال لما بلغه ذلك : اني والله خفت الله عز وجل ، واستحييته ان اقرهما يحكمان في امور الناس طرفة عين وقد وليت امورهم ) [١٥٨].

تتبع عمر بن عبد العزيز المفسدين من الولاة ، ومن اتهموا بنهب فيء المسلمين ، وساموا الناس العذاب ، فكان اسامة بن زيد اول الداخلين الى سجنه لما ارتكبت يداه[١٥٩] ، وتبعه يزيد بن المهلب، الصديق الحميم لسليمان ، وحاكم خراسان القوي، متهما باموال كتب بها الى سليمان لم تجد طريقها الى بيت المال [١٦٠]. وسأل عمر عن يزيد بن مسلم ، كاتب الحجاج ، فقيل له : انه غزا الصائفة ، فأمر بالكتاب

اليه برده ، وقال : لاستنصر بجيش هو فيهم ، فرده من الدرب [١٦١]. هذا وامثاله دليل سيرة حميدة لم تعرفها الدولة الاموية ، ولا انتهجها ساستهم .

يتلخص اصلاح عمر بن عبد العزيز وتشريعه المالي ببساطة متناهية باسقاط الجزية عمن اسلم ،ومنع الملكية الخاصة للارض الخراجية . وهو امر لم يكن في حقيقته من مستحدثات عهده، ذلك ان اسقاط الجزية عن المسلم قاعدة اسلامية سارت مع الفاتحين ، ولم يعمل بخلافها طيلة عهد الراشدين ، اما ملكية الارض الخراجية فالسباق اليها عمر بن الخطاب حين ابى الموافقة على توزيع الارض على الفاتحين ، وجعلها ملكا للمسلمين يؤدي عنها العاملون عليها خراجا معلوما، الا ان الفوضى والعبث المالي الذي زخر به العصر الاموي بفعل الحاجة وعجز بيت المال ، اديا لاهمال التشريعات السابقة ، وعدم العمل بها ، فاعاد عمر بن عبد العزيز ما كان سائدا في عهد الراشدين مع مراعاة الاوضاع الجديدة التي استجدت ، يحدوه تدينه وتقواه لاسعاد الامة والتخفيف عنها ، وازالة تظلمها وشكواها [١٦٢].

فرواية المقريزي ان عدد من ادى الجزية في مصر عند الفتح ستة ملايين ، وقد ادى هذا العدد الكبير مبالغ طائلة لبيت المال . فلا عجب ان اهمل الامويون اسلام القوم واخذوا الجزية بهتانا واثما مبينا، مما راع عمر بن عبد العزيز ما رأى ، فعجلت كتبه الى عماله بأبطالها ، حتى شكى عامله على مصر حيان بن شريح ( ان الاسلام قد اضر بالجزية ، حتى استلغت عشرين الف دينار اتممت به عطاء الديوان ، فان رأى امير المؤمنين ان يأمر بقضائها فعل . فاجابه عمر : ان الله بعث محمد – ص– هاديا ولم يبعثه جابيا ) [١٦٣]. ولا يلتفت لما قاله فون كريمر واوجست موللر : ( ان عمر بن عبد العزيز تدخل في الامور المالية دون اية ضرورة عملية جريا وراء ما صورد له ورعه من مثل عليا خيالية ، وانه لم يكن عنده اية فكرة عن الاحوال الواقعية ) ، ويكفيهم تكفل فلهاوزن بالرد عليهما ، واعتبر ما صدر عنهما استنتاجا غير مقنع مشوب باخطاء حقيقية [١٦٤].

والروايات على اختلافها اظهرت هدوءا شاملا ورضا كاملا للجماعات التي قلبت للامويين ظهر المجن وناصبتهم العداوة ، فتوقفت فعاليات الخوارج ، وهم اكثر الناس عنفا . واشدهم معارضة لبني امية ، ولم يشب سنتي حكمه صوت لتعقعة السلاح . وغدت المجادلة بالتي هي احسن اميز سمات عصره .

بوفاة عمر بن عبد العزيز عادت الاوضاع الى سابق عهدها ، واختفت معالم السياسة المالية التي ارسى قواعدها ، وحاول تثبيت اركانها ، فما ان تولى يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥ هـ) زمام السلطة في دمشق حتى مسح كل نقيبة لسلفه ، وطمس كل اثر لاصلاحاته ، فعزل جميع عماله من الولايات [١٦٥]، واستعان بالسيء الصيت يزيد بن ابي اسلم، عامل سليمان بن عبد الملك ، ( وقد اجمع ان يصنع بأهل افريقية ما صنعه الحجاج بأهل العراق بأخذ الجزية عمن اسلم وتشدد في الخراج ، وارهق اهل الذمة . فقتلوه ، وكتبوا الى يزيد انهم لم يخلعوا يدا من الطاعة ، ولكن يزيد بن اسلم سأمهم حالا يرضى الله ولا المسلمون فقتلناه ) [١٦٦].

واعاد تعيين اسامة بن زيد على خراج مصر ، فاشاع الخوف بين اهلها (فكبس الديارات . وقبض على عدد من الرهبان بغير وسم ، فضرب اعناق بعضهم ، وضرب بقيهم حتى ماتوا تحت الضرب ) [١٦٧].

ولم يكتف اسامة بذلك، لكنه بالغ بالاذى، (فهدت الكنائس، وكسرت الصلبان ، ومحيت التماثيل. وكسرت الاصنام باجمعها، وكانت كثيرة، وكان ذلك سنة ١٠٤هـ) . فاعلنت اول انتفاضة للقبط منذ الفتح العربي الاسلامي للخلاص من قيود ثقيلة وضعها عمالهم بايديهم . ولم يقتصر هذا البلاء على اهل البلاد من المصريين . لكنه شمل العرب انفسهم من اهل الديوان ، فرواية الكندي تذهب الى (ان يزيد بن عبد الملك قطع الزيادة التي امر بها معاوية لاهل الديوان من العرب هناك ، واستمرت من بعده حتى خلافة عمر بن عبد العزيز) ، مما احدث تذمرا واسعا في صفوف العرب المقاتلة الذين اتكأت عليهم دولة بني امية في تثبيت سلطانها [١٦٩].

والظاهر ان ما حدث ان هو الا نتيجة طبيعية بفعل حاجة الدولة الى المال ، لاضطراب اوضاع العراق بعد احداث آل المهلب ومشاكلهم هناك .

اورث يزيد بن عبد الملك لخليفته هشام بن عبد الملك دولة اثقلتها الهموم ، واغرقتها المشاكل . وناء بيت المال تحت التزامات مالية شديدة لم يكن مستعدا لتحملها ، والى هذا يعزى اهتمام الرجل وحرصه على المال وجمعه ، والتشدد في تحصيله[١٧٠]. فارهقت المقاطعات المصرية بضرائب لم تعرفها طيلة العهد الاسلامي . فالبلاذري يروي ( ان جزية الاسكندرية كانت ثمانية عشر الف دينار ، فلما كانت ولاية هشام بن عبد الملك بلغت ستة وثلاثين الف دينار ) [١٧١]. وفي ولاية الحر بن يوسف ( ١٠٦-١٠٧هـ) من قبل هشام ، كتب عبيد الله بن الحبحاب صاحب خراجها ( بان ارض مصر تحتمل الزيادة ، فزاد على كل دينار قيراطا ، فانتفضت كورة تنو وتمي وقربيط وطرابية وعامة اهل الحوف الشرقي ، فبعث اليهم الحر باهل الديوان فحاربهم ، فقتل منهم بشر كثيرا ، وكانت انتفاضتهم في سنة ١٠٧ هـ [١٧٢].

وفي سنة ١٠٧ هـ مسح عبيد الله بن الحبحاب الاراضي المصرية ، واستطاع ان يضمن لبيت المال اربعة ملايين دينار [١٧٣]، مما اجبر اصحاب الاراضي الى تركها ، والنزوح الى المدن بسبب فداحة الالتزامات التي وضعت عليهم ، وعدم القدرة على الايفاء بها .

وهكذا واجهت الدولة الاموية ، او على الاصح ، ولاتها في مصر ، مشكلة خطيرة، وعقبة كأداء كادت ان تعصف بجميع الجهود التي بذلها هشام للتغلب على ازمته المالية جراء هجرة اصحاب القرى لقراهم .

فكتب اليه الوليد بن رفاعه ، عامله على مصر سنة ١٠٩هـ ان ينقل بعض القبائل القيسية من البادية الى المناطق التي هجرها اهلها ، وان يستثمرها ، ويضمن له خراجها[١٧٤]. واشترطت موافقة هشام بعدم السكن في الفسطاط ، وان يتجهوا

صوب منطقة الحوف ، حيث تتركز الثورة على الامويين ، لكن هؤلاء اتجهوا لمزاولة التجارة الى جانب استغلال بعضا من المناطق الزراعية [١٧٥]. ولم يجن الامويون ما كانوا ينشدون . لذا زيدت الضريبة مجددا على القبط فاعلنوا الثورة سنة ١٢١هـ لكنها اجهضت بعنف وقوة[١٧٦].

التقت مصالح السكان المحليين والعرب المستوطنة على مقاومة السلطة الاموية ، وكانت الدعوة العباسية خير متنفس لذلك الاتجاه فمالوا اليها ، وانضموا الى صفوفها للتخلص مما يعانونه ، فاظهروا خلع الامويين وطردوا عمالهم [١٧٧]. ويعطي الكندي صورة واضحة لايام بني امية الاخيرة في مصر بقوله ( وقدم مروان بن محمد مصر سنة ١٣٢هـ ، وسود اهل الحوف الشرقي ، واول من سود هناك شرحبيل بن مزيلة الكلبي ، ولحق الاسود بن نافع الفهري بالاسكندرية فسود بها ، وسود عبد الاعلى بن سعيد بصعيد مصر ، وسود يحيى بن مسلم باسوان ، وثار القبط في رشيد ) [١٧٨].

والصورة بشأن شمال افريقية والاندلس لا تختلف عما الفناه في مصر للصلة السياسية والادارية الوثيقة بين هذه الاقاليم. فرواية الواقدي تذكر ان عمرو بن العاص اتجه بجنده نحو المغرب بعد فتح مصر، فاستولى على برقة،فصالح اهلها على الجزية وهي ثلاثة عشر الف دينار يبيعون فيها من ابنائهم من احبوا بيعه ) [١٧٩].

وفي رواية يزيد بن ابي حبيب ان عمرو بن العاص كتب في شرطه على اهل لوايته من البربر من اهل برقة ( ان عليكم ان تبيعوا ابناءكم ونساءكم فيما عليكم من الجزية ) [١٨٠].

ولا نستطيع ان نتصور تعسفا وجورا اشد من هذا الذي حدث ونفذ في هذه المناطق المحتلة دون ان تاخذ الحاكمين شفقه بهم او رحمه . ان مجيء عمر بن عبد العزيز حال دون الاستمرار بهذا الاسلوب المنافي لكل القيم الاخلاقية والاجتماعية

والدينية ، لاستحصال الجزية، بل ذهب الرجل الى اكثر من ذلك حين كتب الى عماله : (ان من كانت عنده لواتيه فليخطبها من ابيها او فليردها الى اهلها ) [١٨١]. لكن موته حال دون استمرار تلك السياسة،والتي يبدو انها عادت الى سابق ايامها زمن خلفائه.

لقد غدت هذه المناطق مصدرا للنهب والاستغلال المكشوف ، ومثالا صارخا لفساد الادارة حيث استتبع ذلك مضاعفات سياسية خطيرة كان لها ابعد الاثر في كيان الدولة الاموية . فهذا بشر بن صفوان عامل المغرب عرف كيف يستغل منصبه خلال خلافة يزيد بن عبد الملك ، وما ان اعتلى هشام بن عبد الملك السلطة حتى بعث له بشر بأموال عظيمة وهدايا فأقره على منصبه [١٨٢]. ويصف اليعقوبي الحالة المروعة لنهب ثروات البلاد من قبل الولاة ، وجنيهم للاموال الطائلة على حساب اهل البلاد المفتوحة بقوله : (ولي هشام افريقية عبيده بن عبد الرحمن بعد بشر بن صفوان فغنم غنائم كثيرة فخرج الى هشام باموال عظيمة وعشرين الف عبد ) [١٨٣].ويعطي ابن عذاري صورة اخرى لذلك الاستغلال حين يقول ( ان الخلفاء بالمشرق كانوا يستحبون البربريات السنيات ، فلما افضى الامر الى ابن الحبحاب مناهم بالكثير ، وكلف لهم او كلفوه اكثر مما كان ، فاضطر الى التعسف وسوء السيرة ) [١٨٤].

فلا غرو ان شهدت تلك الاماكن انواعا غريبة من المساومات حيث يتولاها اولئك الذين يستطيعون ان يجزلوا العطاء لدمشق دونما اعتبار لحالة البلاد ، او اهتمام بسكانها ، حتى ان عبيدة بن عبد الرحمن حين خرج من افريقية كان فيما خرج به من العبيد والاماء ومن الجواري المتخيرة سبعمائة ، وغير ذلك من الخصيان والخيل والدواب والذهب والفضة والانيه ) [١٨٥].

وفي طنجة اساء عمر بن عبد الله المرادي (١١٦-١٣٣هـ) السيرة وتعدى في الصدقات والعشر ، واراد تخميس البربر ، وزعم انه في فيء المسلمين فقاموا عليه وقتلوه[١٨٦].

وهكذا اشتعلت نار الثورة في كل مكان من شمالي افريقيه عام ١٢١هـ ، حين قادها البربر للتخلص مما كانوا يعانونه من استغلال لا طاقة لهم بتحمله او استيعابه، وانتقلت ريحها الى الاندلس كنتيجة لاوضاعها الاقتصادية الشاذة لاستئثار العرب بالاراضي الخصبة من تلك البلاد الواسعة الارجاء ، تاركين مناطق الجبال في الشمال والغرب للبربر الذين كانوا يشكلون غالبية الجند ، والى سيوفهم الفضل في الاستيلاء على هذه البلاد [١٨٧]. يمكن القول ان البربر شعروا بفداحة ما قدموه من تضحيات دون ما تعويض عادل مقابل تلك التضحيات ، فاتحدوا ضد العرب ، واجبروهم على النزوح الى وسط الاندلس [١٨٨].

وتكشف الرسالة التي قدمها وفد شمال افريقية الى دمشق ، حقائق مذهلة لاستغلال اقتصادي بشع ، واجحاف مرهق لا مسوغ للسكوت عليه او مهادنته ، بل مقاومته بكل سبيل، خاصة بعد رفض الخليفة هشام بن عبد الملك استقبال الوفد او سماع شكواه .

تقول الرسالة : ( ان اميرنا يغزو بنا وبجند ، فاذا اصاب نفلهم دوننا وقال هم احق به، فقلنا هو اخلص لجهادنا ، ولا ناخذ منه شيئا ، ان كان لنا فهم منه في حل ، وان لم يكن لنا لم نرده . واذا حاصرنا مدينة قال : تقدموا واخر جنده ، فقلنا : تقدموا فانه ازدياد في الجهاد ومثلكم كفى اخوانه ، فوقيناهم بانفسنا وكفيناهم . ثم انهم عمدوا الى ماشيتنا فجعلوا يبقرونها على السخال يطلبون الفراء البيض لامير المؤمنين ، فيقتلون الف شاد في جلد ، فقلنا : ما ايسر هذا لأمير المؤمنين فاحتملنا ذلك وخليناهم وذلك . ثم انهم سامونا ان ياخذوا كل جميلة من بناتنا : لم نجد هذا في كتاب الله ولا سنة ، ونحن مسلمون ، فاحببنا ان نعلم : اعن رأي امير المؤمنين ذلك أم لا ) [١٨٩].

واذا انتقلنا الى المشرق حيث املاك الدولة الساسانية ، فان اقاليم واسعة منها اجتاحتها خيول المسلمين بيسر، مما دعاها الى تنظيم علاقاتها مع الفاتحين بمعاهدات للصلح، دفعت بموجبها مبالغ محددة من المال ، اضافة الى بعض التعهدات

الاخرى التي تتصل بامن المنطقة وحماية الجند الاسلامي [١٩٠]. ومع هذا نجد ان تلك المعاهدات غير واضحة المعالم فيما يتعلق بتنظيم الشؤون المالية بين الجانبين ، ولا تعطي الصورة الكاملة لتلك الالتزامات ، ولا توضح طبيعة العلاقات التي سادت بين الجانبين .

واذا كان هذا يصدق على بداية الفتوح في صدر الاسلام ، فتكاد الحالة تنطبق على العصر الاموي خلا بعض المقاطعات، وفي فترات القي عليها ضوء اكثر من سواها. ويظهر ان تلك المقاطعات كانت غالبا ما تعلن العصيان للتخلص من تلك الالتزامات ، كما حدث لجرجان حين ارهقت كما يبدو، بضرائب لا طاقة لها بها [١٩١].

يظهر ان ليست هنالك طريقة واضحة المعالم استند عليها الفاتحون لاستحصال الضريبة في هذه المناطق، كما لم يكن هنالك مقياسا واحدا عوملت بموجبه لتنظيم احوالها الاقتصادية . فالبلاذري يشير الى ان الفاتحين اخذوا الخراج عن الارض والجزية على الرؤوس [١٩٢]. وهو ما جرت عليه العادة في السواد ، على حين يتبين من روايات اخرى ان تلك المناطق كانت تدفع ضريبة واحدة وهي ضريبة الرأس [١٩٣]، بدلا من ضريبتين .

ومع ان عصر الراشدين رأى حالة تلك البلاد وظروفها المختلفة ، فانها ادت مبالغ كبيرة من المال ، اضافة الى احتوائها مجموعات غفيرة من اولئك الذين هجروا الجزيرة واندفعوا للاستيطان في تلك الاماكن .

وفي عصر بني امية شهدت تلك الاماكن وضعا يكاد يكون صعبا ، ان لم يكن مجحفا، من حيث تعسف الولاه وعمالهم دونما رقيب او حسيب . فهذا اسلم بن زرعة والي معاوية على مرو يضاعف الخراج على اهلها مائة الف درهم ،وبحجة واهية في غاية الغرابة [١٩٤]. وتعد اذربيجان مثالا فريدا للتعسف المرهق الذي حاق بالسكان هناك ، فالبلاذري يروي ان عشائر من المصرين – الكوفه والبصرة – والشام نزعت

لهذا الاقليم ( وغلب كل قوم على ما امكنهم ، وابتاع بعضهم من العجم الارضين ، والجأت اليهم القرى للخفارة ، فصار اهلها مزارعين لهم ) [١٩٥].

وهذه هي الصورة التي يرسمها البلاذري لما حدث هناك ، وهي وان حاولت ان تخفف بعض ملامحها القاسية ، فان امعان النظر فيها يقود الى حقيقة لا سبيل لانكارها او تخطيها وهي ان السكان اصبحوا عبيداً لسادتهم الجدد ، فاذا علمنا ان الكثير منهم كانوا قد اسلموا قبل هذا الوقت بزمن يكاد يكون بعيدا [١٩٦]، صح ما يذكره فان فلوتن عن فكرة الفاتحين ورؤسائهم فيما يتعلق بمهمتهم في هذه المناطق ( فقد كان واحد منهم يجعل نصب عينيه مصلحته الشخصية قبل كل شيء ، اما الاسلام والعمل على نشره فقد ظل امرا ثانويا )[١٩٧].

وبرزت ظاهرة جديدة كتلك التي شهدناها في بعض مناطق السواد ، وهي حصول المتنفذين على اقطاعات واسعة ، لا جدال ان عددا غير قليل من الناس استخدم في سبيل استغلالها لصالح تلك الصفوة التي اثرت على حساب الاخرين [١٩٨]. كما اصبحت خراسان موطنا للاثراء وسد الحاجة ، وغدت نعمها مصدرا للتكالب والتنافس العنيف بين الفاتحين انفسهم ، حتى نجد ان بعضا من رجال بكر بن وائل يأبى عليهم ان ينافسهم فيها رجال من قيس ، فيعلنون استياءهم وبشكل مفضوح ( على ما يأكل هؤلاء خراسان دوننا ؟) [١٩٩]، فاذا كان الامر كذلك فما حال اولئك الذين لا حول لهم ولا قوة من سكانها الاصليين ؟ .

لقد لعب آل المهلب دورا كبيرا في خدمة بني امية ، وتثبيت حكمهم ، وتركيز سلطتهم في تلك المناطق ، وهذا ما دعا الى سلبها الكثير من خيراتها وارهاق اهلها بانواع مختلفة من الالتزامات الباهضة نتيجة للسلطة المطلقة التي تمتع بها هؤلاء لقاء تلك الخدمات التي قدمت لدمشق [٢٠٠]، حتى كان مع يزيد بن المهلب بعد غزو جرجان خمس وعشرون مليون درهم حسب ما يروي المدائني [٢٠١]، مما حمل اهلها

على الثورة تارة ، والعصيان تارة اخرى للتخلص من تلك الاعباء الثقيلة التي فرضت عليهم وتحملوها مكرهين[٢٠٢]. ويصف المقدسي ما حل بهم بعد هذا العصيان بقوله : ( ان يزيد بن المهلب فعل بهم الاعاجيب حتى لم يبق من اهلها الا من هرب او توارى وقتلوا اجمعهم ) [٢٠٣].

وفي عهد عمر بن عبد العزيز تكشفت امور في غاية الخطورة للاوضاع المزرية في مناطق المشرق ، ولولاه ، لبقيت طي الكتمان لا سبيل للكشف عنها . فهنالك شكوى اهل سمرقند من غدر قتيبة وظلمه لهم ، واحتلاله لبلادهم [٢٠٤]، ولم تنج من النهب حتى مرافقهم العامة واماكن عبادتهم [٢٠٥]. ومن خراسان يرتفع صوت في حاضرة الخلافة ، قائلا لعمر بن عبد العزيز ( عشرون الفا من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزقا ، ومثلهم قد اسلموا من اهل الذمة ياخذون بالخراج ) [٢٠٦]. فلا عجب ان يفزع الخليفة لما سمع ، وهكذا كانت اوامره المشددة الى اعماله باسقاط الجزية عمن اسلم ، وهو يعلم ان تدابيره هذه قد تؤثر على موارد بيت المال ، فلم تكن غايته ومنتهى امله سوى تحقيق العدل ، ومنع الظلم دون سواهما . لكن مشاريع عمر بن عبد العزيز الخاصة بالاصلاح المالي سرعان ما ذهبت ادراج الرياح بمجيء خلفه يزيد بن عبد الملك الذي كتب الى عماله (ان عمر كان مغرورا ، غررتموه انتم واصحابكم ، قد رأيت كتبكم اليه في انكسار الخراج والضريبة ، فاذا اتاكم كتابي هذا فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده ، واعيدوا الناس الى طبقاتهم الاولى ، اخصبوا ام اجدبوا ، احبوا ام كرهوا )[٢٠٧].

لم تعد خراسان تكفي متطلبات اولئك الذين كانوا ينشدون الغنى السريع منذ الايام الاولى لدولة بني امية ، وهذا يعكس الالحاح الدائم من العرب المستوطنة للاستمرار بالغزو الذي يعتبر المصدر الرئيسي للثراء وحصولهم على اسباب الرفاه المتباينة الاخرى، حتى انهم شكوا امية بن عبد الله عامل عبد الملك بن مروان حين

ترك الغزو فأضر ذلك بالاجناد هناك [٢٠٨]. بل جاوزوا ذلك الى عدم تنفيذهم اوامر عمر بن عبد العزيز التي قضت باقفالهم من اقاليم ما وراء النهر وعودتهم الى خراسان ، فاحتجوا بان مرو ضاقت عن ان تسعهم [٢٠٩]، ولم يكن الامر كذلك ، بل اصبحت بابا واسعا للغنى ، بعد ان جفت منابع الثروة في خراسان، فلا غرابة ان نقلوا معهم حتى ذراريهم للاستيطان في تلك الاقاليم .

وغدت مناطق الترك هدفا للغزو وشن الغارة ، حتى ان الجراح بن عبد الله الحكمي غزا سنة ١٠٤هـ بلنجر ( وهزم الترك وغرقهم وعامة ذراريهم في الماء . وسلبوا ما شاءوا، وفتح الحصون التي تلي بلنجر وجل عامة اهلها ) [٢١٠]. وبلغت غنائم الحرشي في عهد هشام بن عبد الملك مبالغ لا تحصى ، حتى حصل كل مقاتل منهم على الف وثمان مائة سوى الاثاث والدواب [٢١١]، ولم يكن امام السكان سوى الاستمرار بالمقاومة حتى يذكر البلاذري ان اهل سجستان وطبرستان خاصة كانوا يؤدون الصلح مرة ويمتنعون من ادائه اخرى حتى نهاية الامويين [٢١٢].

وفي زمن اشرس بن عبد الملك السلمي ( ١١٠-١١١هـ) والي الامويين في خراسان، جرت محاولة للاصلاح المالي ، استهدف التخفيف عما ينوء تحته الحشد الاكبر من الناس ، وذلك حين دعا اهل سمرقند وما وراء النهر الى الاسلام على ان توضع عنهم الجزية [٢١٣]، فلما اسلموا وضعها عليهم ، وطالبهم بها . واستخف بالدهاقين ، وزاد وظائف خراسان [٢١٤]، فاشعلوها حربا على الامويين ، يساندهم العرب انفسهم [٢١٥].

هذا الذي حدث عبد الطريق ، وسهل قضية الحارث بن سريج لتحدي الدولة الاموية حين اعلن الثورة عام ١١٦هـ، واستطاع ان يحشد تحت لوائه ستين الفا من الجند في رواية الطبري ، اضافة الى دهاقين تلك الاقاليم المختلفة ، وان يستولي

على مرو والجوزجان والغارياب والطالقان ومرو الروذ ، مما اضطر عاصم بن عبد الله (١١٦-١١٧هـ) امير خراسان الى طلب المساعدة العاجلة من دمشق لصد زحف الحارث وعصيانه [٢١٦]، ومع تولي المدد القادم من دمشق فان وهج الثورة اصابه الذبول ، الا ان المقاومة لم تختف ، وبقيت شوكة الحارث في جنب القادة الامويين في خراسان طيلة عهد هشام بن عبد الملك ، ومع انها اخمدت سنة ١٢٨هـ ، الا انها عكرت صفو الامن على الامويين،وجعلتهم غير قادرين على مواجهة الاحداث الخطيرة هناك ، والتي اسفرت عن زوال دولتهم .

ولا نبالغ في محاولة نصر بن سيار الاصلاحية في اواخر الدولة الاموية ، فان الرجل لم يقم بعمل يذكر سوى الغاء الجزية عمن اسلم ، وهو قاعدة اسلامية سارت مع الفاتحين ، وحلت في جميع البلاد التي وطأتها اقدامهم ، واذا كانت قد اندرست ومحيت في عهد الامويين ، فان عمر بن عبد العزيز اعاد العمل بها ، وهو اسبق من نصر بن سيار في التوكيد عليها والعمل بموجبها .

لقد قاست مناطق المشرق كغيرها من تلك البقاع التي خضعت لبني امية ، من شتى المضايقات الاقتصادية التي ارهقت سكانها حتى لم يعد هنالك من سبيل للعودة ، او طريق للتفاهم ، بعد ان ركب الحاكمون رؤوسهم ، فكانت الثورة هي الملجأ الاخير لزوال ذلك الطغيان ، والى هذا يشير فان فلوتن ( ان زوال احكم بني امية قد اصبح محتوما منذ اللحظة التي برهنت فيها الحوادث على ان النظام الذي كان يتشبث به الامويون لم يعد ثمة ما يبرر بقاءه ) [٢١٧].

وهذا احد شيوخ بني امية ومحصليها يشرح اسباب زوال دولتهم بقوله ( انا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا ، فظلمنا رعيتنا فيئسوا من انصافنا ، وتمنوا الراحة منا ، وتحومل على اهل خراجنا فتخلوا عنا ، وخربت ضياعنا فخلت بيوت اموالنا ) [٢١٨].

المصـادر :


١. ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، القاهرة ، ١٢٩٠هـ.

٢. ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ليدن ، ١٨٨٩ .

٣. ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ليدن ،١٩٣٢ .

٤. ابن الطقطقي : الفخري في الاداب السلطانية ، بيروت ، ١٩٦٠.

٥. ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، مصر ١٩٥٤ ، ١٩٦١ .

٦. ابن عبد ربه : العقد الفريد ، القاهرة ، ١٩٤٠ ، ١٩٦٥ .

٧. ابن عذاري : البيان المغرب ، ليدن ، ١٩٤٨ .

٨. ابن قتيبة : عيون الاخبار ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

٩. ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ، بيروت ، ١٩٥٧

١٠. البلاذري : فتوح البلدان ، القاهرة ، ١٩٥٩ ؛ ليدن ، ١٨٦٦ .

١١. انساب الاشراف ، الجزء الرابع والخامس ، القدس ، ١٩٣٦ .

١٢. انساب الاشراف للمؤلف المجهول ( نشرة الواردت ١٨٨٣ ).

١٣. الجاحظ : البيان والتبيين ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

١٤. الجهشياري : الوزراء والكتاب ، القاهرة ، ١٩٣٨ .

١٥. الدينوري : الاخبار الطوال ، القاهرة ، ١٢٣٠هـ.

١٦. الزبيري : نسب قريش ، القاهرة ، ١٩٥٣ .

١٧. الطبري : تاريخ الطبري ، الحسينية ، القاهرة ؛ دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

١٨. القاضي الرشيد : الذخائر والتحف ، الكويت ، ١٩٥٩ .

١٩. قدامة بن جعفر :الخراج وصنعة الكتابة ، ليدن ، ١٨٨٦ .

٢٠. الكندي : الولاة وكتاب القضاة ،بيروت ، ١٩٠٨.

٢١. ولاة مصر ، بيروت ، ١٩٥٩ .

٢٢. المبرد : الكامل في الادب ، القاهرة ، ١٩٣٧ .

٢٣. المسعودي : مروج الذهب ، ومعادن الجوهر ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

٢٤. المقدسي : البدء والتاريخ ، باريس ، ١٨٦٩ .

٢٥. المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ، بولاق .

٢٦. مؤلف مجهول :اخبار مجموعة في فتح الاندلس ، مدريد ، ١٨٦٧ .

٢٧. الهمداني : مختصر كتاب البلدان ، ليدن ، ١٣٠٢هـ.

٢٨. اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ليدن ، ١٨٨٣م ؛ النجف ، ١٣٣٢هـ.

٢٩. فان فلوتن : السيادة الغربية والشيعة والاسرائيليات ، القاهرة ، ١٩٣٤ .

٣٠. يوليوس فلهاوزن : الدولة العربية وسقوطها ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

الهوامش :

١. الطبري : تاريخ الطبري ، ٤/١٦-١٧ .

٢. المصدر نفسه ، ٤/٢٠ .

٣. ابن الاثير ، ٢/٢٠٠ .

٤. ابو يوسف القاضي : الخراج ، ص٤٧ .

٥. تاريخ الطبري ، ٤/١٧ .

٦. القاضي الرشيد : الذخائر والتحف ، ص١٥٦ .وفي رواية المسعودي ان ضرار بن الخطاب عوض بثلاثين الفا عن راية الفرس المعروفة بدرفش كاوان ، وكانت قيمتها الفي الف ومائة الف . مروج الذهب ، ٢/٣٢٩ .

٧. المصدر نفسه ، ص٢٤٥ .

٨. الواقدي : فتوح الشام ، ٢/٢١١ .

٩. البلاذري : فتوح البلدان ، ص٤٤٣ ؛ تاريخ الطبري ، ٤/٢١٢ .

١٠. الاحكام السلطانية ، ص٢٠٢ .

١١. المصدر نفسه .

١٢. تاريخ الطبري ، ٤/١٦٢ ؛ انظر ابن دريد : الاشتقاق ، ص٤٩٣ .

١٣. تاريخ الطبري ، ٤/٢١٩ ؛ القالي : الامالي ، ٢/١٥٤ .

١٤. تاريخ الطبري ، ٤/٢١٩ .

١٥. فتوح البلدان ، ص٢٦٧ .

١٦. المصدر نفسه ، ص٢٦٨ .

١٧. الخراج ، ص١١٤ ؛ وانظر فتوح البلدان، ٢٧٩ . الاحكام السلطانية ، ص١٦٧ .

١٨. الخراج ، ص٧٥ ؛ فتوح البلدان ، ص٢٩٣ . هي الاراضي التي كانت لكسرى ومرازبته واهل بيته مما لم يكن في يد احد . الخراج ، ص٧٥

١٩. تاريخ الطبري ، ٢/٢٢١ .

٢٠. المسالك والممالك ، ص٩٤ .

٢١. الخراج وصنعة الكتابة ، ص١٧٥ .

٢٢. فتوح البلدان ، ص٢٧٠ .

٢٣. فتوح البلدان ، ص٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٤ .

٢٤. المقريزي : الخطط ، ١/١٢٣ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة ، ١/٩٣ .

٢٥. فتوح مصر ، ص٢١٥ ؛ وانظر الخطط ، ٢/٩٢ .

٢٦. فتوح مصر ، ص١٦١ ؛ الخطط ، ٢/٣٣١ .

٢٧. يروي الجهشياري ان زياد اهدى الى معاوية هدايا كثيرة وكان بينها عقد جوهر نفيس ، فاعجب به معاوية ، فلما رأى ذلك زياد، قال له: يا امير المؤمنين، دوخت

لك العراق،وجبيت لك برها وبحرها، وغثها وسمينها، وحملت اليك لبها وقشورها، فقال له يزيد: لئن فعلت ذلك لقد نقلناك من ولاء ثقيف الى عز قريش ، ومن عبيد الى ابي سفيان، ومن القلم الى المنابر! وما امكنك ما اعتدت به الا بنا) ؛ الوزراء والكتاب ، ص٢٧-٢٨ .

٢٨.ابن قتيبة : عيون الاخبار ، ١٠/١ .

٢٩.اليعقوبي : تاريخ الطبري ،، ٢٥٨/٢ .

٣٠.الخراج وصنعة الكتابة ، ص٢٤٠ .

٣١.تاريخ اليعقوبي ، ٢٥٩/٢ ؛ الوزراء والكتاب ، ص٢٤ .

٣٢. البدء والتاريخ ، ٦٩/٦ .

٣٣. تاريخ اليعقوبي ، ٢٢٣/٢ .

٣٤.المصدر نفسه ، ٢٠٧/٢ .

٣٥. المصدر نفسه ، ٢٠٧/٢ .

٣٦.تاريخ الطبري ، ١٦٦/٥ ؛ ابن الاثير : الكامل ، ٢٧٨/٣ .

٣٧.تاريخ الطبري ، ١٦٦/٥ .

٣٨.في رواية اليعقوبي : ( كانت مصر والمغرب لعمرو بن العاص طعمة شرطها له يوم بايعه ونسخة الشرط ( هذا ما اعطى معاوية ابن ابي سفيان عمرو بن العاص مصر اعطاه اهلها فهم له حياته ولا تنقص طاعته شرطا ) ، تاريخ اليعقوبي، ٢١١/٢ .

٣٩.البدء والتاريخ ، ٣/٦ .تاريخ الطبري ، ٢١٣/٥ ؛ الكامل ، ٢٩٩/٣ .

٤٠.ابن اعثم : الفتوح ، ٢٠٠/٤ . وفي رواية ابن الجوزي ( اصطف الصفراء والبيضاء ، ولا تقسم بين الناس الذهب والفضة )، صفوة الصفوة ، ٢٧٩/١ .

٤١.مروج الذهب ، ٩٣/٣ .

٤٢.الزبيري : نسب قريش ، ص٣٨٩ .

٤٣.فتوح البلدان ، ص٢١٩ .

٤٤.نسب قريش ، ص١٥٤ .

٤٥.المصدر نفسه ، ص١٥٤ .

٤٦.الاصفهاني : الاغاني ، ٢٩/١٦ .

٤٧.تاريخ اليعقوبي ، ٢٠٨/٢ .

٤٨.ومن طريف القول ما يذكره الجاحظ ، وهو افضل من خبر النفوس ، وعرف طباعها (ان ما كان يجيزه معاوية ومن اتى بعده لم يكن كرما ، ولا جائزة ولا صلة رحم ، لان هؤلاء قوم كان يخافهم على ملكه ، ويرى حقهم فيه ، وموقعهم من قلوب العامة ، فكان يدبر في ذلك تدبيرا ، ويزيغ امورا ، ويصانع عن دولته وملكه ) . رسالة في فضل هاشم على عبد شمس ، ص٢١٠ .

٤٩. في رواية ابن اعثم : ان معاوية حين ادرك طمع سعيد بن عثمان بن عفان في الامارة وخطر منافسته الشديدة ليزيد ولاه خراسان لامتصاص معارضته، الفتوح ، ١٨٤/٤ .

٥٠.ابن اعثم : الفتوح ، ١٠/٥ .

٥١.الدينوري : الاخبار الطوال ، ص٢٧٤ .

٥٢.ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ٣٨٧/٤ .

٥٣. ابن الاثير : الكامل ، ٤٥/٤ .

٥٤.تاريخ الطبري ، ٤/٧ .

٥٥.المصدر نفسه ، ٤/٧ .

٥٦.تاريخ الطبري ، ٤٨٤/٥ .

٥٧.تاريخ الطبري ، ١٠/٦ .

٥٨.المصدر نفسه ، ١٠/٦ .

٥٩.المصدر نفسه ، ٦/ ١١ .

٦٠.ابن سلام : الاموال ، ص٥٧٠ .

٦١.مروج الذهب ، ٨٣/٣ .

٦٢.تاريخ الطبري ، ٦٨/٦ .

٦٣.الاخبار الطوال ، ص٢٩١ .

٦٤. فتوح ابن اعثم ، ١٤٦/٦ ؛ ابن الاثير : الكامل ، ٩١/٤ . وكانت حجة المختار على مخالفيه (اكرمتكم فشمختم بأنافكم، ووليتكم فكسرتم الخراج ، وهؤلاء اطوع لي منكم واوفى واسرع الى ما اريد ) . فتوح ابن اعثم ، ١٨٤/٦ .

٦٥.فتوح ابن اعثم ، ٦٨/٦ .

٦٦.العقد الفريد ، ٤١٢/٤ .

٦٧.المصدر نفسه ، ٩٨/٣ .

٦٨.انساب الاشراف ، ٣٣٧/٥ .

٦٩.المصدر نفسه ، ٨٨/٥ .

٧٠.انساب الاشراف ، ٤٣٦/٦ .

٧١.تاريخ الطبري ، ١٥٧/٦ .

٧٢. انساب الاشراف ، ٣٣٢/٥ . المصدر نفسه ( نشره الواردت ) ، ص٢٧ .

٧٣.العقد الفريد ، ٤١٠/٤ .

٧٤.تاريخ الطبري ، ١٨٩/٧ .

٧٥.انساب الاشراف ( نشرة الواردت ) ، ص٢٨ ؛ تاريخ اليعقوبي ، ١٩/٣ .

٧٦.فلهاوزن : الدولة العربية وسقوطها ، ص٢١٨ .

٧٧. انساب الاشراف ( نشرة الواردت ) ، ص٢٧٣ .

٧٨.ابن حبيب : المحبر، ص٣٤. بينما ( كان عكرمة بن ربعي شرط بشر بن مروان يحصل على مائة الف درهم )، انساب الاشراف ، ١٧٧/٥ .

٧٩.لطائف المعارف ، ص٦٢ .

٨٠.الوزراء والكتاب ، ص٤١ ؛ مروج الذهب ، ٣/١٥٤ .

٨١.تاريخ الطبري ، ٦/٣٣٦ .

٨٢.انساب الاشراف ( نشرة الواردت ) ، ص٢٨٠ .

٨٣.انساب الاشراف ، ص٢٨٠ ؛ ابن الاثير : الكامل ، ٦/١٥٨ .

٨٤.انساب الاشراف ، ص٢٨٢ ؛ تاريخ الطبري ، ٦/٢١٠ .

٨٥.الاحكام السلطانية ، ص١٤٣ .

٨٦.تاريخ الطبري ، ٦/٣٨١ .

٨٧.في تاريخ الطبري ، ٦/٣٨١ .كتب الحجاج الى البصرة وغيرها ( من كان له اصل في قرية فليخرج اليها ) .

٨٨. المبرد : الكامل ، ١/٤٤٠ ؛ العقد الفريد ، ٣/٤١٧ .

٨٩.تاريخ الطبري ، ٦/٣٢٦ .

٩٠.تاريخ الطبري ، ٦/٣٤٧ .

٩١.تاريخ الطبري ، ٨/١٥ .

٩٢.المصدر نفسه ، ٦/٣٤٧ .

٩٣.تاريخ الطبري ، ٦/٣٤٧ ؛ ابن الاثير : الكامل ، ٢٠٤ .

٩٤.الدولة العربية وسقوطها ، ص٢٤٠ .

٩٥.المسالك والممالك ، ص١٤-١٥ ؛ وانظر فتوح البلدان ، ص٣٧٨ ؛ المسعودي : التنبيه والاشراف ، ص٢٧٤ ؛ الصولي، ادب الكتاب ، ٣/٢٢٠ ؛ العسكري : الاوائل ، ص١١٥ .

٩٦.فتوح البلدان ، ص٢٩٢ ؛ الخراج وصنعة الكتابة ، ص٢٤١ .

٩٧.الخراج ، ص١١٠ .

٩٨.تاريخ الطبري ، ٥٦٩/٦ ؛ الخراج ، ص٨٦ .

٩٩.مروج الذهب ، ٢٠٠/٣ وما بعدها .

١٠٠.تاريخ الطبري ، ٥٦٩/٦ .

١٠١.خشي الامويون عمر بن عبد العزيز وما ستجر اعماله الاصلاحية من مشاكل لاصحاب الثراء والمتنفذين منهم . فعجلوا بوضع حد لحياته . وفي رواية ابن حزم (كان ابو بكر اخا لعمر، وكان اسن منه فكان عمر رضيه للخلافة بعده فسقيا السم معا فماتا جميعا، رحمهما الله-ولعن من كادهما)، جمهرة انساب العرب، ص١٠٥.

١٠٢.الكامل ، ٢٥/٥ .

١٠٣.تاريخ الطبري ، ٣٧٦/٢ .

١٠٤.مروج الذهب ، ٢٠٧/٣ ؛ الاغاني : ٣٤٦/٨-٣٤٧ .

١٠٥.الخرصة : شيء ، أي ليس له شيء .

١٠٦.فتوح البلدان ، ص٣٥٩ .

١٠٧.البيان والتبيين، ٤١٠/١. وفي رواية ابي مخنف (كانت بيعة يزيد بن المهلب : تبايعون على كتاب الله وسنة نبيه -ص- وعلى الا تطأ الجنود بلادنا ولا بيضتنا ، ولا يعاد علينا سيرة الفاسق الحجاج ) ، تاريخ الطبري ، ٥٩٢/٦ .

١٠٨.تاريخ الطبري ، ٥٩٣/٦ .

١٠٩.المصدر نفسه ، ٥٩٦/٦ .

١١٠.المصدر نفسه ، ١٤٨/٨ .

١١١.المصدر نفسه ، ١٥٣/٨ .

١١٢.ابن الاثير : الكامل ، ٣٦/٥ .

١١٣.المصدر نفسه ، ٤٠/٥ .

١١٤.تاريخ الطبري ، ١٧٧/٨ .

١١٥.الاحكام السلطانية ، ص١٧٥ .

١١٦.مروج الذهب ، ٢٠٧/٣ .

١١٧.الوزراء والكتاب ، ص٤٩ ؛ ابن الاثير : الكامل ، ٤٩/٥ .

١١٨.تاريخ اليعقوبي ، ٣٧٨/٢ ؛ تاريخ الطبري ، ٢٥٠/٨ .

١١٩.في رواية الطبري (ان طارقا – خليفة خالد القسري على الخراج – ختن ولده ، فاهدى له الف عتيق ، والف وصيف والف وصيفه ، سوى الاموال والثياب وغير ذلك ) ، تاريخ الطبري ، ١٤٧/٧ . ومع مبالغة الرواية الواضحة الا انها تدل على مقدار الاموال التي حصل عليها المستغلون .

١٢٠.الاخبار الطوال ، ص٣٤٤ .تاريخ اليعقوبي ، ٢٨٧/٢ .

١٢١.تاريخ الطبري ، ٢٤٩/٨ ؛ ابن خلدون : العبر ، ٢٠٥/٣ .

١٢٢.ابن الاثير : الكامل ، ٨٧/٥ .

١٢٣.الاخبار الطوال ، ص٣٤٤ ؛ الوزراء والكتاب ، ص٦١ .

١٢٤.ابن الاثير : الكامل ، ٨٧/٦ .

١٢٥.ولي نصر بن سيار خراسان لهشام بن عبد الملك سنة ١٢٠هـ، وللوليد بن يزيد من بعده، وكانت هديته التي اعدها لدمشق فاقت كل وصف حتى وصلت اخبارها يوسف بن عمر في الكوفة ، وفي رواية المدائني : (ان نصر ابن سيار لم يدع بخراسان جارية ولا عبدا ولا برذونا فارها الا اعده، واشترى الف مملوك، واعطاهم السلاح وحملهم على الخيل، واعد خمسمائة وصيفة، وامر بصنعة اباريق الذهب والفضة وتماثيل الظباء ورؤوس السباع والايايل وغير ذلك ) . تاريخ الطبري ، ٢٢٤/٧ .

١٢٦.تاريخ الطبري ، ٢٢٤/٧ .

١٢٧.تاريخ اليعقوبي ، ٤٨/٣ .

١٢٨.تاريخ الطبري ، ٢٧/٩ .

١٢٩.مروج الذهب ، ٣/٢٣٤ ؛ لهذا سمي بالناقص .

١٣٠.المصدر نفسه ، ٣/٢٣٣ .

١٣١.فتوح مصر والمغرب ، ص٢٠٧ .

١٣٢.فتوح البلدان ، ص٢١٩ .

١٣٣.ومن ذلك قول النبي -ص- (اذا فتحتم مصر ما ستوصوا بالقبط خيرا ، فان لهم ذمة ورحما). فتوح البلدان، ص٢٢٠ ؛ وقوله (استوصوا بالقبط خيرا فانكم ستجدونهم اعوانا على قتلا عدوكم ) . فتوح مصر والمغرب ، ص٤ .

١٣٤.بتلر: فتح العرب لمصر ( ترجمة : محمد فريد ابو حديد ، القاهرة ، ١٩٣٢ ) ، ص٤٦ .

١٣٥.فتوح مصر والمغرب ، ص٢١٣ .

١٣٦.فتوح مصر والمغرب ، ص٢١٣ .

١٣٧.المصدر نفسه ، ص٢١٥ .

١٣٨.المصدر نفسه ، ص٢١٥ .

١٣٩.فتوح البلدان ، ص٢١٧ ؛ تاريخ الطبري ، ٤/٢٥٧ .

١٤٠.تاريخ اليعقوبي ، ٢/٢١١ .

١٤١.الاخبار الطوال ،ص٢٣٢ .

١٤٢.المقريزي : الخطط ،١/١٤١ .

١٤٣.الولاة وكتاب القضاة ، ص٦٨ .

١٤٤.المقريزي : الخطط ، ١/١٢٥ ، ٤/٣٩٤ .

١٤٥.الوزراء والكتاب، ص٥١ ؛ الخطط ، ١/٣٠٢ . كان عبد الملك بن رفاعه حسن السيرة ، عفيفا عن الاموال ، دينا وفيه عدل في الرعية ، وكان ثقة امينا فاضلا . النجوم الزاهرة ، ١/٢٣١ .

١٤٦.الخطط ، ٢/٤٩٢ .

١٤٧.المصدر نفسه ، ٢/٤٩٢ .

١٤٨.الوزراء والكتاب ، ص٥١ . والدر : الحليب . والنجا : ما يخرج من البطن .

١٤٩.الوزراء والكتاب ، ص٥٢ .

١٥٠.المصدر نفسه ، ص٥٦ .

١٥١.تاريخ الطبري ، ٦/٥٥٧ .

١٥٢.الوزراء والكتاب ، ص٥٥ .

١٥٣.بحث فلهاوزن النظام المالي في الاسلام من خلال كتابه القيم (الدولة العربية وسقوطها)، وعرج على اصلاحات عمر بن عبد العزيز، وسياسته المالية ، لا اظن سبقه اليها سابق، او لحق به لاحق، من نقد للروايات، وبراعة في التحليل، وتفسير للحدث قل نظيره ، الدولة الدولة وسقوطها ، ص٢٥٩ وما بعدها .

١٥٤.الخطط ، ٤/٣٩٤ .

١٥٥.الدولة العربية وسقوطها ،ص٢٦٣ .

١٥٦.تاريخ اليعقوبي ، ٣/٥٤ .

١٥٧.تاريخ الطبري ، ٦/٦١٧ .

١٥٨.المقريزي : الخطط ، ٢/٤٩٣ .

١٥٩.المصدر نفسه ، ٢/٤٩٣ .

١٦٠.المقريزي : الخطط ، ١/١٤١ .

١٦١.تاريخ الطبري ، ٧/٢٠٣ ؛ مروج الذهب ، ٣/٢١٧ ، ٢٢٣ .

١٦٢.فتوح البلدان ، ص٢٢٥ .

١٦٣.الولاة وكتاب القضاة، ص٧٤ ؛ الكندي : ولاة مصر ، ص٩٥ . لم تقتصر حملة هشام التقشفية على السكان المحليين، لكنها شملت المقاتلة العرب ، واهل الديوان

الذين انقصت ارزاقهم التي كانت اثني عشر اردبا ، فجعلها عشرة ( الولاة وكتاب القضاة ، ص٨٢ ) .

١٦٤.الولاة وكتاب القضاة ، ص٧٨ .

١٦٥.الولاة وكتاب القضاة ، ص٧٧ .

١٦٦.الولاة وكتاب القضاة ، ص٧٦ .

١٦٧.المصدر نفسه ، ص٨١ .

١٦٨.الكندي : ولاة مصر ، ص١٠٩ ؛ الولاة وكتاب القضاة ، ص٨٧ .

١٦٩.الولاة وكتاب القضاة ، ص٨٩ .

١٧٠.فتوح البلدان ، ص٢٢٥ .

١٧١.المصدر نفسه ، ص٢٢٦ .

١٧٢.فتوح البلدان ، ص٢٢٧ .

١٧٣.تاريخ اليعقوبي ، ٦١/٣ .

١٧٤.تاريخ اليعقوبي ، ٣/ ٦١.

١٧٥.ابن عذاري : البيان المغرب ، ٥٢/١ .

١٧٦.ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص٢٩١ .

١٧٧.ابن القوطية: تاريخ افتتاح الاندلس،ص٤٠؛ المؤلف المجهول: اخبار مجموعة، ص٢٨ .

١٧٨.ابن حزم : جمهرة انساب العرب ، ص٤٦٣ .

١٧٩.المؤلف المجهول : اخبار مجموعة ، ص٣٨ .

١٨٠.تاريخ الطبري ، ٢٥٥/٤ .

١٨١.فتوح البلدان ، ص٣٢١ ؛ تاريخ الطبري ، ١٣٧/٤ ، ١٤١ ، ١٥١ .

١٨٢.تاريخ الطبري ، ٢٧١/٤ .

١٨٣.فتوح البلدان ، ص٢٠٦ .

١٨٤.المصدر نفسه ، ص٣٢٢ .

١٨٥.يروي المقدسي : انه اخبر اهل مرو ان يكفوا عنه نقيق الضفادع . فاخبروه باستحالة مطلبه ، فضاعف عليهم الخراج . البدء والتاريخ ٤/٦٠ .

١٨٦.فتوح البلدان ، ص٣٢٤-٥ .

١٨٧.فتوح البلدان ، ص٣٢٤ .

١٨٨.فان فلوتن : السيادة العربية ، ص٢٤ .

١٨٩.فتوح البلدان ، ص٣٠٥ .

١٩٠.فتوح البلدان ، ص٤٠٤ .

١٩١.في رواية الطبري ، ٥٥٧/٦ . ان عمر بن عبد العزيز كان يبغض يزيد بن المهلب واهل بيته ، ويقول هؤلاء جبابرة ولا احب مثلهم .

١٩٢.فتوح البلدان ، ص٣٣٢ .

١٩٣.نفس المصدر ، ص٣٣١ .

١٩٤.البدء والتاريخ ، ٤٣/٦ .

١٩٥.فتوح البلدان ، ص٤١١ ؛ تاريخ الطبري ، ٥٦٨/٦ .

١٩٦.فتوح البلدان ، ص٤١١ .

١٩٧.تاريخ الطبري ، ١٣٤/٨ .

١٩٨.العقد الفريد ، ٤٤١/٤-٢ .

١٩٩.ابن اعثم : الفتوح ٢٩٢/٦-٢٩٣.

٢٠٠.تاريخ اليعقوبي ، ٤٧/٣ ؛ تاريخ الطبري ، ٥٦٨/٦ .

٢٠١.تاريخ الطبري ، ١٥/٧ .

٢٠٢.ابن اعثم : الفتوح ، ٥٧/٨ .

٢٠٣.فتوح البلدان ، ص٣٣٣ .

٢٠٤.تاريخ الطبري ، ١٩٦/٨ ؛ ابن الاثير : الكامل ، ٥٨/٥ . لا سبيل للدفاع عن الاسباب التي ادت به الى اعادة الجزية على من اسلم وان ما يذكره مؤيدوا هذا الاتجاه من ان نقص الضريبة ، وشكه في الدوافع التي حملتهم الى دخول الاسلام لا يشكل حجة للمتذرعين بهما . ويبدوا ان الاصلاح المالي هذا لا اساس له من واقع ، وكل الذي حدث انه جند العدد الغفير منهم بحجة اسقاط الجزية عنهم ، فلما اصبحوا مقاتلين اعتبرهم غير مسلمين ، لمنع العطاء عنهم ، ومطالبتهم بالجزية اذا ما تركوا جيشه .

٢٠٥.فتوح البلدان ، ص٤١٧ .

٢٠٦.فتوح البلدان ، ص٤٢٩ ؛ تاريخ الطبري ، ١٩٦/٨ . يحكى عن الحسين بن ابي العمرطه نائب اشرس في سمر قند انه قال : ( قد اتيناهم وغلبناهم على بلادهم واستعبدناهم ) . تاريخ الطبري ، ٣٨/٧ .

٢٠٧.تاريخ الطبري ، ٢١٩/٨ .

٢٠٨.السيادة العربية ، ص٤٣-٤٤ .

٢٠٩.مروج الذهب ، ٢٤١/٣ .